تـــأمـــلات

في

قصة نوح عليه السلام

دكتور

رمضان عبد العزيز عطا الله

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي انزل الفرقان علي محمد ﷺ ليكون للعالمين نذيرا ، ومعجزاً للإنس و الجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

أحمده على تفضله علينا بكتابة فضلاً كبيراً ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً .

وأصلي وأسلم على المبعوث بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، صلاة دائمة تتصل و لا تنقطع بكرة و هجيراً .

وبعد

فإن القرآن الكريم هو حبل الله المتين ، وذكره الحكيم ، وصراطه المستقيم ، وبرهانه المبين ، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا** ﴾ (١) .

وهو حجة الله على خلقه ، وآياته الناطقة على قدرته وعلمه ، ومعجزته الباهرة الدالة على صدق نبيه ﷺ .

قال تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ** ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ **لَّـٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا** ﴾ (١) .

---

١ – سورة النساء آية رقم ١٧٤ .

٢ – سورة العنكبوت آية رقم ٥١.

وهو النور الذي يهدي البشرية إلى الله ، ويربط قلوبهم بشرعة وهداه ، ويرسم لهم المنهج الراشد في العقيدة والشريعة والمعاملات والأخلاق ، قال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [٢] .

وقد استعمل القرآن الكريم للدعوة إلى مبادئه وشرائعه ، وفي لفت العقول والقلوب إليها جملة وافرة من الأساليب .

منها : الإرشاد إلى النظر و التدبر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ، لتعرف أسرار الله في كونه ، وإبداعه في خلقه ، وبذلك تمتلئ القلوب إيماناً بوجوده و عظمته عن نظر واقتناع لا عن تقليد وابتداع ، وبهذا السبيل كرم الله العقل وفتح له باب البحث عن خواص الأجسام وأسرار الكائنات في الأرض ، والسماء ، والماء ، والهوى ، كي ينتفع بها في حياته ، ويستخدمها في التعمير والإنشاء .

ومنها : قصص الأولين ، أفراداً و أمما الصالحين منهم و المفسدين ، وقد أورد في ذلك كثيراً مما يثير العظة والاعتبار ، ويرشد إلى سنن الله في معاملة عباده ، وهذا هو مقصد القرآن من ذكر قصص الماضيين ، فلم يذكره على أنه تاريخ يحدد الزمان والأشخاص،ويرتب الوقائع ويبين الأسباب والنتائج ، ولم يذكره على أنه أساطير تتحدث عن الغرائب والأعاجيب التي يسمر بها الناس في النوادي والمجتمعات .

---

١ – سورة النساء آية رقم ١٦٦ .

٢ – سورة المائدة الآيتان رقم ١٥ ، ١٦ .

ومنها : إيقاظ الشعور الباطن في الإنسان فيندفع الإنسان بوحي هذا الشعور إلى التساؤل عن مبدئه ، وعن مادته وعن حياته ، وعن مآله ومصيره ، حتى يصل إلى الاعتراف بخالق القوى والقدر ، وواضع الأسباب والمسببات ، رب الأرض والسموات ، مدبر الأمر ومصرفه ، وتلك هي الفطرة التي ذكرها الله بقوله تعالى : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [1] .

ومنها : أسلوب الإنذار والتبشير ، أو الوعد والوعيد ، وللقرآن في ذلك طريقتان أحدهما : الوعد والوعيد عن طريق الحياة الدنيا : يعد المؤمنين الصالحين بعموم السلطان والتمكين في الأرض ، وينذر الجاحدين المفسدين بتقلص العز وانتزاع الملك ، وتسليط الأعداء .

وثانيها : الترغيب بنعيم الآخرة الدائم الذي لا ينقطع ، الصافي الذي لا يشوبه كدر ، والترهيب من الكفر والإفساد في الأرض والطغيان على عباد الله بعذابها الدائم المهين) [2] .

فالقصص القرآني إذاً هو أحد الأساليب التي حملها القرآن ليحاج بها الناس ، وليقطعهم عن الجدل والمماحكة ، شأنه في هذا شأن ما جاء في القرآن من أساليب الإستدلال والمناظرة ، والتحجيز ، والوعد والوعيد ، والتهديد ، وغيرها من المشاهد والمواقف المبثوثة في القرآن الكريم كله ، من قصار السور إلى طوالها ، لا نجد سورة مهما قصرت – تخلو من مشهد أو موقف ، يمهد للدعوة الإسلامية و يضع معلماً أو معالم للهدى إليها ، والتبصير بها في منطق محكم وحجة دامغة و بيان معجز مفحم .

---

١ – سورة الروم آية رقم ٣٠ .

٢ – ينظر : إلى القرآن الكريم للإمام الأكبر شلتوت ص ٧ ، ٨ .

ومن أجل هذا كانت القصة في القرآن ركيزة قوية من ركائز الدعوة الإسلامية القائمة على الإقناع العقلي والإطمئنان القلبي , بما تدعو إليه من الإيمان بالله ورسله , وكتبه واليوم الآخر .

وبما تحمل من مثل في مجال الجهاد والكفاح والبذل والتضحية والفداء , في سبيل الدعوة إلى الحق والتوجيه إلى الخير والهدى , والتنكر للباطل والضلال , والصمود في وجه الظلم و الطغيان .[١] .

هذا وقد تخيرت من قصص القرآن ليكون موضوعاً لهذا البحث قصة نبي الله نوح عليه السلام وذلك لعدة أسباب :

أولها : أنها انفردت بسورة كاملة من قصار السور سميت باسمه عليه السلام وهذا ما لم يكن لأية قصة أخرى من قصص الأنبياء غير يوسف عليه السلام الذي سميت باسمه سورة من طوال السور , على حين أن بعض الأنبياء قد سميت بعض السور باسمهم كسورة هود , وسورة يونس وسورة إبراهيم ولكنها لم تكن خالصة للحديث عنهم بل شاركهم في ذلك غيرهم من الأنبياء .

ثانيها : أن معظم السور التي وردت فيها القصة فيها الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده , وكيفية استقبال القوم لها وإهلاك المكذبين , وتنجيه المؤمنين , وذلك بأسلوب بياني جديد يناسب سياق السورة و يخدم موضوعها الرئيسي .

ثالثها : أنها وردت في سور شتى بين الطويل من القصص و القصير المعتمد على الإشارة السريعة أو الوقفة عند بعض الأحداث التي تتفق مع المنهج الأساسي للسورة الواردة فيها .

---

١ – ينظر : القصص القرآني في منطوقة ومفهومه للأستاذ عبد الكريم الخطيب ص ٨ بتصرف.

رابعها : أن كل الصور التي عرضها القرآن الكريم للقصة جميعها صورة واحدة يكمل بعضها بعضاً , في حين أن كل صورة منها تمثل القصة كلها و تبرز ملامحها .

والذي أود أن أنبه عليه هنا قبل الشروع في دراسة هذه القصة هو : أن دراستي لها ليس الغرض منها ذكر قصة نوح عليه السلام بجميع حوادثها وتفصيلاتها, فإن ذلك قد ذكر في كثير من الكتب والأبحاث , ولكن غرضي منها ما يلي :

١- بيان أن قصة نوح عليه السلام في كل سورة وردت فيها قد جاءت مناسبة للسياق الذي وردت فيه,وملائمة للإطار العام للسورة الكريمة التي وردت فيها .

٢- بيان أن كل سورة وردت فيها قصة نوح عليه السلام قد انفردت بذكر شيء جديد لم يذكر في غيرها من السور التي وردت فيها القصة .

٣- بيان أن قصة نوح عليه السلام مع ذكرها في أكثر من سورة ليس فيها ذلك التكرار المطلق الذي يخيل لبعض من يقرؤون القرآن بلا تدقيق ولا إمعان

٤- بيان أنه ما كان من تكرار شيء في القرآن الكريم له صله بنبي الله نوح عليه السلام من ناحية اسمه مجرداً أو من ناحية قصته فإن ذلك لم يكن عبثاً بل كان لتحقيق أغراض دينية و أسرار بيانية .

هذا وقد استعنت بالله في كتابة هذا البحث الذي أسميته (تأملات في قصة نوح عليه السلام) وقسمته إلى مقدمة وتمهيد وثلاث فصول وخاتمة .

المقدمة : في أهمية الموضوع , وخطتي فيه .

التمهيد : في القصص القرآني معناه , وأغراضه

الفصل الأول : في السور التي وردت فيها قصة نوح عليه السلام .

الفصل الثاني : في الأغراض الدينية المستفادة من تكرار اسم نبي الله نوح في القرآن .

الفصل الثالث : في أسرار التنزيل في قصة نوح عليه السلام .

الخاتمة : في أهم النقاط التي تناولها البحث .

والله أسأل أن ينفع به وأن يتقبله مني عملاً صالحاً أبتغي به وجهه تعالى ، وأتقرب به إليه لعله يرضى عني و يغفر لي ، إنه تعالى عفو كريم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

دكتور

رمضان عبد العزيز عطا الله

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن

تمهيد

القصص القرآني معناه و أغراضه

المعنى اللغوي للقصص :

أصل القصص في اللغة :- القص وهو تتبع الأثر تقول العرب قصصت الشيء إذا تتبعت أثره . [1] .

قال الراغب في مفرداته (القص تتبع الأثر , يقال قصصت أثره , والقصص : الأثر . ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [2] ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ [3] .

والقصص الأخبار المتتبعة قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ [4] [5] .

المعنى الاصطلاحي للقصص القرآني (هو حكايته و إخباره عن أحوال الأمم الماضية والأنبياء السابقين والحوادث والكائنات الواقعة فيما مضى من الزمان قبل وقت نزوله) [6] .

وإنما سميت تلك الأخبار قصصاً , لأن القصص بهذا المعنى يدخل في مدلول كلمتي (خبر ونبأ) , وقد استعمل القرآن الخبر والنبأ بمعنى التحدث عن الماضي , وإن كان قد فرق بينهما في المجال الذي استعمل فيه , جرياً على ما

---

١ – لسان العرب مادة قصص .
٢ – سورة الكهف آية رقم ٦٤ .
٣ – سورة القصص آية رقم ١١ .
٤ – سورة آل عمران آية رقم ٦٢ .
٥ – المفردات للراغب مادة قصص .
٦ – ينظر : المرشد الوافي في علوم القرآن د / محمود فودة ص ١٩٩ .

قام عليه نظمه من دقه وإحكام ، واستعمل النبأ والأنباء في الأحداث الماضية من زمن بعيد ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ (١) ، ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ (٢) .

واستعمل الخبر و الأخبار في الكشف على الوقائع القريبة العهد

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (٣)(٤).

والاشتقاق اللغوي للقصة يفيد أنها كشفت عن آثار مضت ، وتنقيب عن أحداث نسيها الناس وغفلوا عنها ، وغاية ما يراد من ذلك هو إعادة عرضها من جديد لتذكير الناس بها .

ولفتهم إليها ، لتكون العبرة والعظة ، ولا يصح أن نطلق لفظ الحكاية على هذا النوع ، لأن الحكاية يلاحظ فيها المحاكاة ، والوقوف على ما جرى فقط ، أما القصص فإنه ينقلك بنفسك وعقلك ووجدانك إلى هذا الزمان الغابر ، لتعيش فيه فتأخذ العبرة ، والعظة (٥) .

والقصة في القرآن فن متميز وأداة بيانية فعالة جاءت لتسهم فيما يرمي إليه من غايات دينية (لأن القرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة و تثبيتها) (٦) .

---

١ – سورة ص آية رقم ٢١ .
٢ – سورة الكهف آية رقم ١٣ .
٣ – سورة محمد آية رقم ٣١ .
٤ – ينظر : القصص القرآني في منطوقة و مفهومه د / عبد الكريم الخطيب ص ٤٥ .
٥ – ينظر : الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم د / محمد محمود حجازي ص ٢٥٧ .
٦ – ينظر : التصوير الفني في القرآن / سيد قطب س ١٤٣ .

أغراض القصص القرآني

للقصص القرآني أغراض كثيرة أهمها ما يأتي : -

١ – بيان أن الدين كله من عند الله ؛ من عهد نوح إلي عهد محمد وبيان الأصل المشترك بين الأديان السماوية جميعها . قال تعالي :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [١] .

٢ – إثبات الوحي والرسالة لمحمد ﷺ وبيان صدقه في دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضيين عبر القرون والأجيال . قال تعالي : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾[٢]

٣ – تثبيت قلب رسول الله ﷺ ومن آمن معه , حيث يقفون على أخبار الرسل وأممهم وكيف كانت العاقبة للمتقين , والدائرة على الغافلين المعاندين وفي هذا تثبيت لهم , وشحذ لعزائمهم .

قال تعالى : ﴿ وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٣] .

٤ – الاعتبار والاتعاظ بما جاء فيه من مظاهر القدرة الإلهية وعاقبة الخير والشر , والعجلة والتريث , والصبر والجزع , والشكر والبطر , قال تعالى : ﴿

١- سورة الأنبياء آية رقم . ٢٥

٢ - سورة يوسف آية رقم ٣ .

٣ - سورة هود آية رقم ١٢٠ .

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [1] . وقال أيضاً : ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [2] .

٥ – بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة , وأن استقبال قومهم لهم متشابه – قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ، أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [3] .

٦ – تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان , وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم .

قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [4] .

٧ – مقارعة أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات و الهدى , وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل , كقوله تعالى :

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [5] .

٨ – تصديق الأنبياء السابقين و إحياء ذكراهم و تخليد آثارهم [6] .

---

١ – سورة يوسف آية رقم ١٧٦ .
٢ – سورة الأعراف الآية رقم ١٧٦ .
٣ – سورة الذاريات الآيتان ٥٢ / ٥٣ .
٤– سورة الأعراف آية رقم ٢٧ .
٥ – سورة آل عمران آية رقم ٩٣ .
٦ – ينظر : التصوير الفني للقرآن ص ١٤٤ و ما بعدها , مباحث في علوم القرآن مناع القطان ص ٣٠٧ , أساليب الإقناع في القرآن د / بن عيسى باطاهر ص ٨٨ بتصرف .

فالقرآن له فضل في الحفاظ على قصص الأولين بعدما عبثت به أيدي السابقين . و لولاه لضاعت أخبارهم و رواياتهم و لم يبق منها اليسير .

أسرار تكرار القصص القرآني

لقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذي تكرر في غير موضع أكثر من مرة . و ذلك بألفاظ مختلفة و أساليب متعددة , لأغراض جليلة تدل كلها على إعجاز القرآن الكريم .

وهذه بعض الأسرار لتكرار القصص القرآني نجملها فيما يلي : -

١- قوة الإعجاز , فإيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدي .

يقول البقاعي رحمة الله في نظم الدرر (ويستفاد من تكرار القصص فوائد منها : - إظهار القدرة في بيان الإعجاز بتصريف المعنى في الوجوه المختلفة لما في ذلك من علو الطبقة في البلاغة لأنه ربما قال متعنت عند التحدي , قد استوفى اللفظ البليغ على الأسلوب الأكمل البديع في هذه القصص فلم تبق لنا ألفاظ نعبر بها عن هذه المعاني حتى نأتي بمثل هذه القصة فأتى بها ثانياً إظهاراً لعجزة وقطعاً لحجته وربما كررت ثانياً وثالثاً ورابعاً توكيداً لذلك وتمكيناً للاعتبار بضروب البيان وتصبيراً للنبي ﷺ على أذى قومه حالاً فحالاً .

فإن قيل : فما بالها تأتي تارة في غاية البسط , وتارة في غاية الإيجاز , وتارة على الوسط.قيل هذا من أعلى درجات البلاغة , وأجل مراتب الفصاحة , والبراعة [١] .

١- ينظر : نظم الدرر للبقاعي ٣ . ٥١٩ /

٢- بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها ، فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور متعددة مختلفة ، والقصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر وتصاغ في قالب غير القالب ولا يمل الإنسان من تكرارها بل تتجدد في نفسه معاني لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى[١]

٣- اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام ، و تبرز معاني أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال [٢] .

يقول الشيخ محمد أبو زهرة رحمة الله في كتابه المعجزة الكبرى (إننا إذا نظرنا نظرة فاحصة تليق بمقام القرآن ، و مكانته في البيان العربي ، نجد أن التكرار فيه له مغزى ، ذلك أن القرآن ليس بكتاب قصص ، و ليس كالروايات القصصية التي تذكر الحوادث المتخيلة أو الواقعة .

إنما قصص القرآن ، وهو قصص لأمور واقعة ، يساق للعبر وإعطاء المثلات ، وبيان مكان الضالين ومنزلة المهتدين ، وعاقبة الضلال ، وعاقبة الهداية ، وبيان ما يقاوم به النبيون ، ووراءهم كل الدعاة للحق ، فهو قصص للعبرة بين الواقعات ، لا لمجرد المتعة من الاستماع والقراءة ، ولكي يتبين للقارئ الكريم أن التكرار بسبب تعدد العبر التي هي المقصد الأول من القصص تذكر على سبيل المثال لا الحصر (قصة إبراهيم ﷺ) فقد ذكرت عدة مرات لتعدد العبر فيها ، و لقد كان إبراهيم أباً للعرب فقصته لها تأثير كبير في قلوبهم وأفئدتهم .... وحينما نقرأ هذه القصة كما جاءت في كتاب الله تبارك وتعالى في عدة مواضع نلاحظ أنه لا تكرار قط فيها ، ولكن حكمة العليم الخبير تعالت

١- ينظر : مباحث في علوم القرآن مناع القطان ٣٠٨ .

٢- ينظر : مباحث في علوم القرآن مناع القطان ٣٠٨ .

كلماته اقتضت ذكرها متفرقة الأجزاء في مواضع لتكون كل عبرة بجوار خيرها في القصة ، ولو اجتمعت في مكان واحد لاختلطت العبرة بالقصة الخبرية ، وما تميزت كل عبرة تميزاً يجعلها كوناً مستقلاً مقصوداً بالذات) (١) .

٤- أن كل عرض للقصة الواحدة يشتمل على عرض زائد على ما في العرض السابق .

ومن ذلك مثلاً أن القرآن سمى عصا موسى عليه السلام مرة حية ، و أخرى ثعباناً ، و ثالثة جاناً ، قال تعالى في سورة طه ﴿ **قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ، فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى** ﴾ (٢) .

وقال في سورتي الأعراف والشعراء : ﴿ **فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ** ﴾ (٣) .

وقال في سورتي النمل والقصص : ﴿ **فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ** ﴾ (٤) .

٥- أن القصة الواحدة من هذه القصص و إن ظن أنها لا تغاير الأخرى فقد يوجد فيه ألفاظها زيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير ، وتلك حال المعاني الواقعة بحسب تلك الألفاظ ، فإن كل واحدة لابد وأن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائد فيه لا يوقف عليه إلا منها دون غيرها ، فكأن الله تعالى فرق ذكر ما دار بينهما و جعله أجزاء ثم قسم تلك الأجزاء على تارات ولو جمعت تلك القصص في

١- ينظر : المعجزة الكبرى لأبي زهرة ص ١٢١ و ما بعدها بتصرف و اختصار .
٢ – سورة طه الآيتان ١٩ , ٢٠ .
٣- سورة الأعراف أية رقم ١٠٧ , و سورة الشعراء أية رقم ٣٢ .
٤- سورة النمل أية رقم ١٠ , و سورة القصص أية رقم ٣١

موضع واحد لأشبهت ما وجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة من انفراد كل قصة منها بموضع .

كما وقع في القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصة فاجتمعت في هذه الخاصية من نظم القرآن عدة معاني عجيبة [١] .

أنواع القصص القرآني

والقصص في القران ثلاثة أنواع :

النوع الأول : قصص الأنبياء وقد تضمن هذا النوع منهاج كل رسول في دعوته إلي الله والإيمان به , وباليوم الأخر كما جاء فيه إشارات إلي معجزة كل رسول وتأييد الله سبحانه وتعالي له , كما تحدث قصص الأنبياء في القران الكريم عن مواقف المعاندين والمتكبرين وسوء عاقبتهم ، وفي هذا الصدد قص الله علينا في كتابه قصص آدم , ونوح وهود , وصالح , وإبراهيم وإسماعيل , وإسحاق , ويعقوب , وموسي , وعيسى , ومحمد , وغيرهم من الأنبياء و المرسلين .

النوع الثاني : قصص يتعلق ببعض الأحداث الغابرة , وترتبط بأشخاص لم تثبت نبوتهم وذلك مثل الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت , وطالوت وجالوت , وابني آدم , وأهل الكهف , أصحاب السبت , وأصحاب الأخدود , وأصحاب الفيل , ونحوهم .

النوع الثالث : قصص يتعلق بأحداث وقعت في زمن رسول الله ﷺ وذلك قبل الغزوات , وحديث الإفك , وحديث الإسراء , ونحو ذلك [١].و قد ذهب بعض

---

١ – ينظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣ / ٢٩ بتصرف .

العلماء إلى أن الحوادث التي حدثت في عهد رسول الله ﷺ لا تعتبر من قصص القرآن في شيء مستدلاً على ذلك من قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ [٢].

وقد رد على هذا الكلام بأنه لا مانع من جعل الحوادث التي وقعت في عهده ﷺ جزءاً من قصص القرآن فالقرآن كله أزلي سواء في ذلك ما يتعلق بحوادث غابرة و ما حدث للأنبياء السابقين لرسول و ما وقع في عهده ﷺ قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ، فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [٣].[٤].

الفصل الأول

السور التي وردت فيها قصة نوح عليه السلام

بين يدي القصة : -

١- ينظر : مباحث في علوم القرآن مناع القطان ٣٠٦ ، و المرشد الوافي في علوم القرآن د / محمود فودة ص ١٩٩ .
٢- سورة طه آية رقم ١٩٩ .
٣- سورة البروج الآيتان ٢١ ، ٢٢ .
٤- ينظر : المرشد الوافي في علوم القرآن د / محمود فودة ص ٢٠٠ و ما بعدها .

قصة نوح عليه السلام ذكرت في عشر سور من القرآن الكريم و هي حسب ترتيب المصحف [1] . (الأعراف , يونس , هود ,الأنبياء , المؤمنون , الشعراء , العنكبوت , الصافات , القمر , نوح) .

وهي في هذه السور علي درجات متفاوتة في الطول والقصر وقد ذكرت فيها بعدة أساليب , وفي عدة صور .

وقبل عرض القصة كما وردت في سورة القرآن الكريم أود أن أشير إلى أمرين أرى من الضروري الإشارة إليهما :-

الأول : أن السور التي وردت فيها قصة نوح عليه السلام كلها مكية [2] . وغالب القرآن المكي يهتم بأمور ثلاثة :

١ - توحيد الله سبحانه و تعالى و نفي الشرك عنه و بيان مظاهر قدرته و تصرفه في الخلق و التكوين و الإنشاء .

٢ - إثبات نبوة محمد ﷺ و أنه رسول من الله سبحانه و أن القرآن كلام الله المنزل عليه , و أنه الحق الذي لا شبهة فيه .

٣ - إثبات البعث و الجزاء يوم القيامة , و إقامة الأدلة على حدوث ذلك و أنه لا ريب فيه .

١- وحسب ترتيب النزول (القمر - الأعراف - الشعراء - يونس - هود - الصافات - نوح - الأنبياء - المؤمنون - العنكبوت) .

٢ - بالنسبة لسورة العنكبوت فالتحقيق فيها أنها مكية ماعدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها فإنها مدنية و هي التي ذكر فيها المنافقون : ينظر : مناهل العرفان للزرقاني ١ / ١٩٨ .

وقد تحقق من ذكر قصة نوح في القرآن هذه الأهداف الثلاثة التي يدعو إليها القرآن المكي .

فبالنسبة إلى توحيد الله في العبادة ، وما يتبعه من نفي الشركاء وبيان حقيقتهم .

جاء في سورة الأعراف قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ ﴾ [1] .

وجاء في سورة هود قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ، أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [2] .

وجاء في سورة المؤمنون قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [3] .

وجاء في سورة نوح قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ، أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [4] .

وبالنسبة إلي إثبات نبوة محمد ﷺ وأنه مرسل من عند الله وأنه صادق فيما ادعاه عن نفسه وعن القران من أنه كلام الله , جاء في سورة هود بعد قصة نوح عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [1] .

١- سورة الأعراف آية رقم ٥٩ .
٢- سورة هود الأيتان رقم ٢٥ , . ٢٦
٣- المؤمنون آية رقم ٢٣ .
٤- نوح الأيتان رقم ٢ , ٣ .

وبالنسبة لإثبات البعث يوم القيامة وأنه حق لا ريب فيه جاء في سورة نوح قوله تعالي : ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ (٢) .

الثاني : أن القصة لم تذكر بجميع حوادثها وتفصيلاتها في سورة واحدة , ولكن هذه الأحداث وتلك التفصيلات وزعت علي جميع السور التي وردت فيها القصة , توزيعا يناسب سياق السورة , ويخدم موضوعها , ويتلاءم مع الإطار العام لها .

هذا ويمكننا حصر هذه الأحداث وتلك التفصيلات في العناصر التالية : -

١ - إثبات نبوة نوح ﷺ ورسالته .

٢ - أن قوم نوح ﷺ كانوا يعبدون الأصنام فدعاهم إلي عبادة الله وتوحيده متخذا في ذلك أحسن الأساليب وأحكمها .

٣ - أن الأشراف من قومه لم يستجيبوا لدعوته احتقارا لأتباعه من الضعفاء .

٤ - أن الأشراف من قومه وصفوه بالجنون وهددوه بالقتل .

٥ - إصرار الأشراف من قومه علي التكذيب والعناد والاستكبار كلما أصر علي دعوتهم إلي توحيد الله وعبادته وترك عبادة الأصنام .

٦ - إظهار ما كان عليه نوح ﷺ من شجاعة وقوة , وهو يبلغ رسالة ربه .

١- هود آية رقم ٤٩ .

٢- نوح الآيتان رقم ١٨ , ١٧

٧ – أنه ﷺ لم يطلب منهم أجرا علي دعوته .

٨ – إخبار الله لنوح ﷺ أن قومه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن وذلك بعد زمن طويل لبعثه فيهم وهو يدعوهم ويصبر عليهم ،

٩ – دعاء نوح ﷺ علي قومه بالهلاك ، بعد طلبهم إنزال العذاب الذي يعدهم به .

١٠ – أن الله استجاب لدعوته فأمره بصنع السفينة تمهيدا لإنقاذه هو ومن آمن معه .

١١ – سخرية الأشراف من نوح ﷺ كلما مروا عليه ورأوه يصنع السفينة .

١٢ – حلول الأجل الذي قضاه الله وقدره للطوفان وكان من علامة ذلك فوران الماء من التنور .

١٣ – أن الله أمره أن يحمل في السفينة من أمن معه من أهله ومن المؤمنين وأن يحمل معه أيضا من كل زوجين اثنين .

١٤ – دعوة نوح ولده للركوب في السفينة و رفض ولده لهذه الدعوة .

١٥ – تحسر نوح على ولده و تمنيه أن يكون من الناجين .

١٦ – عتاب الله لنوح ﷺ وإخباره بأن هذا الولد من الكافرين .

١٧ – إرشاد الله له ﷺ إلى ما يقوله عند ركوب السفينة و عند النزول منها .

١٨ - ذكر المدة التي لبثها في قوله يدعوهم إلى عبادة الله و توحيده و هي ألف سنة إلا خمسين عاماً .

١٩ - بيان أن الذين بقوا بعد نوح عليه السلام هم ذريته فقط .

٢٠ - بيان حسن العاقبة الطيبة للمؤمنين , و بيان سوء العاقبة السيئة للكافرين .

تلك هي أهم أحداث القصة كما وردت في القرآن الكريم في هذه السور العشر , وهذه الأحداث قد وزعت في السور الكريمة التي وردت فيها القصة , أحياناً نجد بعضها مرة واحدة , ثم يختفي [١] . على حين أن البعض الآخر نجده مرة ومرة , ومرات كثيرة ولكن بألفاظ مختلفة ولأغراض تتجدد في المواطن والأحوال .

ولنبدأ الآن بعرض القصة كما وردت في سور القرآن الكريم لنثبت أنها في كل سورة قد عرضت عرضاً جديداً يناسب السياق الذي وردت فيه , ويتلاءم مع الإطار العام للسورة الكريمة لأن ذلك يعد وجهاً من وجوه إعجاز القرآن وسراً من أسراره .

السورة الأولى : سورة الأعراف , وهي السورة السابعة في الترتيب المصحفي , وهي أطول سورة مكية في القرآن الكريم .

والذي يتأمل في السورة الكريمة يراها قد اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله , وعلى صدق رسوله محمد ﷺ , وعلى أن يوم القيامة حق .

---

١ - وذلك مثل ذكر المدة التي لبث فيها يدعو قومه إلى عبادة الله و توحيد , و مثل حواره مع ولده و هو يدعوه لركوب السفينة .

وقد اهتمت السورة الكريمة بعرض هذه الحقائق في أسلوبين بارزين فيها :

أحدهما : أسلوب التذكير بالنعم ، والآخر : أسلوب التخويف من العذاب والنقم .

أما أسلوب التذكير بالنعم فنراه واضحاً في لفتها لأنظار الناس إلى ما يلمسونه و يحسونه من نعمة تمكينهم في الأرض ، ونعمة خلقهم وتصويرهم في أحسن تقويم ، ونعمة تمتع الإنسان بما في هذا الكون من خيرات سخرها الله له .

وأما أسلوب التخويف بالعذاب فالسورة الكريمة زاخرة به ، نلمس ذلك في قصص نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وموسى مع أقوامهم .

وقد استغرق هذا القصص أكثر من نصفها ، وقد ساقت لنا السورة الكريمة ما دار بين الأنبياء وبين أقوامهم ، وما آل إليه أمر أولئك الأقوام الذين لم يستجيبوا لنصائح المرسلين إليهم [1].

وقد بدأت القصة في السورة الكريمة من الآية التاسعة و الخمسين إلى آخر الآية الرابعة و الستين ، وفيها يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ، قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ،أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ، فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ ﴾ .

١ – ينظر : التفسير الوسيط د / محمد سيد طنطاوي ٥ / ٢٣٧ .

فالآيات تبدأ حديثها عن نوح عليه السلام بالقسم من الله بأن الله قد أرسل نوحاً إلى قومه ، فدعاهم إلى عبادة الله و توحيده و إفراده بالعبودية ، وأنه عليه السلام قد حذرهم من سوء عاقبة التكذيب إن لم يستجيبوا إلى دعوته و لم يبادروا إلى ندائه ، عذاب يوم عظيم ، ولكن أشراف قومه اتهموه بالوقوع في الضلال ، والانحراف ، عن طريق الحق و الرشاد لدعوتهم إلى وحدانية الله ، وعبادته و ترك عبادة الأصنام .

فرد نوح عليه السلام على قومه قائلاً لهم يا قوم ليس بي ضلالة ، وليس بي خروج عن الحق و الرشاد ، إذا أمرتكم بعبادة الله و توحيده ، لأني رسول من عند الله أدعوكم إلى ما فيه سعادتكم في الدنيا و الآخرة ، وأبلغكم ما أوحاه الله إلي من الأوامر والنواهي ، والمواعظ والزواجر ، والبشائر والنذائر ، والعبادات والمعاملات ، وأتحرى ما فيه صلاحكم وخيركم ، فأرشدكم إليه وأخذكم نحوه ، كل ذلك عن علم وبيان ، وليس غريباً يا قوم أن تأتي الرسالة على لسان رجل منكم ، يحذركم من عقاب الله على الكفر والمعاصي ، وليعلمكم ما يكون به الخشية من الله ، ليرحمكم بسببها ، ومع هذه الدلائل التي ساقها نوح على صحة نبوته ، إلا أن أشراف قومه أصروا على تكذيبه ، وخالفوا أمر ربهم ، ولجوا في طغيانهم يعمهون ، فكان عاقبتهم أن أغرقهم الله بالطوفان ، وأنجى نوحاً والذين آمنوا معه [1] .

تلك هي قصة نوح مع قومه كما وردت في السورة الكريمة ، وهي قصيرة كالموضوعات التي وردت في السورة قبلها ، لكنها مشتملة على أهم ما تشتمل عليه الرسالات ، رسول معلم يذكر بوعد الله ووعيده الذي لا يتخلف ، وقوم يؤمن منهم جماعة ويكفر آخرون محتجين بأن الرسالة لا تكون لرجل ، فينزل

---

١ – ينظر : التفسير الوسيط ٥ / ٢٩٦ وما بعدها بتصرف واختصار ، والتفسير الواضح د / محمد محمود حجازي ١ / ٧٢٥ وما بعدها بتصرف واختصار

عذاب الله بالمكذبين ، وأهم ما يتهم به ذلك الرسول كونه على ضلاله إذا خرج على سنة الأولين .

وقد سبقت القصة في السورة بحديث أهل النار ينادون إخوانهم أهل الجنة أن يمنحوهم شيئاً من الماء أو الطعام فيذكر أهل الجنة ، أن الله حرم ثمار الجنة وماءها على الكافرين ، ثم تتعرض السورة لضروب من الكفر الذي كان عليه القوم في الدنيا إلى أن تنتهي إلى حقيقة مؤداها ﴿ **وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ** ﴾ [1] .

ويذكر الأستاذ عبد الكريم الخطيب في تفسيره مناسبة هذه القصة لما قبلها من آيات في السورة الكريمة فيقول رحمة الله (بعد هذا العرض الذي تتجلي فيه قدرة الله وسلطانه المتمكن في هذا الوجود ، ورحمته المبثوثة في كل أفق ، بعد هذا جاءت آيات الله لتتحدث عن مشاهد من الكفر والضلال والمكر بآيات الله ، ولتقيم فيها عبرة وعظة لهؤلاء المشركين الذين كذبوا رسول الله وبهتوه ، وأخذوه ومن آمن معه بالبأساء والضراء، وفي هذا عزاء للنبي وللمؤمنين معه ، ووعيد للمشركين والضالين أن يحل بهم ما حل بأقوام سالفين كذبوا رسل الله ومدوا إليهم ألسنتهم وأيديهم بالضر والأذى [2] .

ويقول صاحب الظلال رحمة الله (سورة الأعراف مكية، وموضوعها الأساسي هو موضوع القرآن المكي العقيدة ، والسورة الكريمة تعالج هذا الموضوع ،في مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى ، وعائدة علي النقطة التي انطلقت منها ، وفي هذا المدى المتطاول تعرض موكب الإيمان من لدن آدم ﷺ إلي محمد ﷺ ، تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة

١- الأعراف آية رقم ٥٨ .

٢ - ينظر : التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ٤١٨/٣ .

، ويمضي بها علي مدار التاريخ يواجه بها البشرية جيلا بعد جيل ، وقبيلاً بعد قبيل ، ويرسم سياق السورة في تناسقه كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وكيف جاوبته ، وكيف وقف الملأ لهذا الموكب بالمرصاد ، وكيف تخطي هذا الموكب أرصادها و مضي في طريقه إلي الله . و كيف كانت عاقبته المكذبين وعاقبة المؤمنين في الدنيا و الآخرة ....

ويقول أيضا بعد ذكر القصة تعرض القصة هنا باختصار ليست فيها التفصيلات التي ترد في مواضع أخري من القرآن في سياق يتطلب تلك التفصيلات كالذي جاء في سورة هود وفي سورة نوح ، إن الهدف هنا هو تصوير تلك المعالم التي تحدثنا عنها آنفا طبيعة العقيدة ، طريقة التبليغ ، طبيعة استقبال القوم لها حقيقة مشاعر الرسول ، تحقق النذير ، لذلك تذكر من القصة فحسب تلك الحلقات المحققة لتلك المعالم ، علي منهج القصص القرآني [١] .

ومما سبق ذكره يتبين لنا أن قصة نوح عليه السلام في السورة قد ناسبت السياق الذي وردت فيه وتلاءمت مع الإطار العام لها .

السورة الثانية : سورة يونس عليه السلام وهي السورة العاشرة في ترتيب المصحف والسورة الكريمة شأنها في عرض الأحداث وأسلوب الدعوة شأن كل السور المكية ، فقد اهتمت بإثبات وحدانية الله ، وبإثبات صدق النبي ﷺ ، وبإثبات أن هذا القرآن من عند الله، و أن البعث حق ، و أن ما أورده المشركون من شبهات حول الدعوة الإسلامية قد ذكرت السورة طرفاً منه ثم ردت عليه بما يبطله .

---

١ – ينظر : في ظلال القرآن ٣ / ١٢٤٤ وما بعدها بتصرف .

يقول صاحب الظلال رحمة الله (الموضوع الرئيسي في سورة يونس هو ذات الموضوع العام للقرآن المكي , و السورة تتناول محتوياته , وفق طريقتها الخاصة التي تحدد شخصيتها و ملامحها .

إنها تواجه ابتداء موقف المشركين في مكة من حقيقة الوحي إلى رسول الله , ومن هذا القرآن ذاته بالتبعية , فتقرر لهم أن الوحي لا عجب فيه و أن هذا القرآن ما كان ليفتري من دون الله .

وتواجه طلبهم خارقة مادية غير القرآن واستعجالهم بالوعيد الذي يسمعونه فتقرر لهم أن آية هذا الدين هي هذا القرآن , وهو يحمل برهانه في تفرده المعجز الذي يتحداهم به , وأن الآيات في يد الله ومشيئته وأن موعدهم بالجزاء يتعلق بأجل يقدره الله والنبي لا يملك شيئاً فهو عبد من عباد الله .

وتواجه اضطراب تصورهم لحقيقة الألوهية و حقيقة العبودية الأمر الذي يحدثهم رسول الله فيه فيكذبونه بالوحي أو يشككون فيه , و يطلبون قرآناً غيره .

ثم تواجه ما يترتب على اضطراب تصورهم للألوهية وما يترتب على تكذيبهم بالبعث و الآخرة و ما يترتب على تكذيبهم بالوحي و النذارة) [١] .

وقد بدأت القصة في السورة الكريمة من الآية الحادية و السبعين إلى نهاية الآية الثالثة و السبعين و فيها يقول الله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ، فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ

---

١ – ينظر : الظلال ٣/ ١٧٤٦ باختصار .

أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾

فالآيات تبدأ حديثها عن نوح عليه السلام بأمر الله لمحمد ﷺ أن يخبر قومه نبأ نوح عليه السلام مع قومه ، و الجهد الذي بذله في دعوتهم إلى التوحيد ، و الحقد الذي أظهروه له ، والمكر الذي أرادوه به ، ليعلموا أن سنة الله قد اقتضت أن يجعل العاقبة للمتقين .

فأخبر أيها الرسول كفار مكة الذين يخالفونك و يكذبونك ما قاله نوح لقومه بعد أن دعاهم ليلاً ونهاراً ، وسمع منهم ما سمع من استهزاء بدعوته ، وتطاول على أتباعه ، يا قوم إن كان قد شق عليكم مقامي فيكم و تذكيري بآيات الله الدالة على وحدانية فأجمعوا ما تريدون جمعه من مكر وكيد بي ، ثم ادعوا شركاءكم ليساعدوكم في ذلك ، فإني ماض في طريقي الذي أمرني الله به ، بدون مبالاة بمكركم ، وبدون اهتمام بكيدكم ، ثم لا يكن أمركم ، الذي أجمعتم على تنفيذه فيه شيء من الستر أو الخفاء أو الالتباس الذي يجعلكم مترددين في المضي فيه أو متقاعسين عن مجاهرتي بما تريدون فعله معي ، ثم أدوا إلى ذلك الأمر الذي تريدون أداءه من إيذائي أو إهلاكي بدون إنذار أو إمهال ، فإن أعرضتم أيها الناس عن قولي وعن تذكيري إياكم بآيات الله بعد وقوفكم على أمري وعلى حقيقة حالي ، فإني ما سألتكم في مقابل تذكيري لكم أو دعوتي إياكم إلى الحق من أجر تؤدونه لي ، فإن أجري على الله وحده الذي يثيبني على قولي وعملي وهو الذي يعطيني من الخير ما يغنيني على أجركم وعطائكم ، فقد أمرني أن أكون من المتبعين لهدية ، المستسلمين لقضائه و قدره .

ثم أخبر قومك أيضاً بالعاقبة الطيبة التي آل إليها أمر نوح عليه السلام ، والعاقبة السيئة التي انتهى إليها حال قومه .

فقد أنجينا نوحاً و من معه من المؤمنين في السفينة التي صنعها بأمر الله و جعلنا هؤلاء الناجين خلفاء في الأرض لأولئك المغرقين الذين أغرقناهم بالطوفان بعد أن كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، فانظر يا من يتأتى منه النظر كيف كانت نتيجة تكذيب هؤلاء المنذرين الذين لم تنفع معهم النذر والآيات التي جاءهم بها نوح عليه السلام (١) .

تلك هي قصة نوح عليه السلام مع قومه كما وردت في السورة الكريمة ، وهي قصة مختصرة تميزت بإظهار شجاعة نوح عليه السلام و تحديه لقومه بعد الإنذار الطويل و التذكير الطويل الذي حدث منه لهم .

وأيضاً : بإعلان نوح لقومه بأنه لا حاجة إلى أجر يدفعونه على ذلك الإنذار والتذكير لأن له رباً يلي أمره ويثيبه على عمله وقد أمره أن يكون من المسلمين.

ولكن تكذيب القوم كان سبباً في نزول العاقبة السيئة بهم , فآيات القصة في السورة ثلاث فيهن لخص القرآن قصة نبي الله نوح عليه السلام .

وقد سبقت القصة بافتراء المشركين على الله ونسبة الولد إليه وقد رد القرآن على ذلك رداً مختصراً فيه النذير كل النذير ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ، مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٢) .

ثم جاءت هذه القصة بعد ذلك مباشرة لتكون تذكيراً للمشركين بما حدث للمكذبين من قبلهم لعلهم يعقلون .

---

١ – ينظر : الوسيط في تفسير القرآن ٧ / ١٠٣ وما بعدها بتصرف واختصار ، والتفسير الواضح د / محمد حجازي ٢ / ٨٠ بتصرف واختصار .
٢ – سورة يونس الآيات من ٦٨ – ٧٠ .

يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب في تفسيره (ومناسبة هذه القصة لما قبلها هي أن ما ذكر في الآيات السابقة عليها كان عرضاً لمقولات المشركين المنكرة في الله , وافترائهم الكذب على الله بنسبة الولد إليه, فهم آثمون ظالمون , واقعون في معرض عذاب الله ونقمته فناسب أن يذكر هؤلاء الآثمون المشركون بما أخذ الله به الظالمين قبلهم من نكال وبلاء ليكون لهم في ذلك عبرة , إن كانت فيهم بقية من عقل وإدراك) [1] .

ويؤكد د / هاشم جودة رحمة الله أن قصة نوح في سورة يونس قد سيقت بطريقة مختلفة غير الطريقة التي سيقت بها في سورة الأعراف وأنه لا تكرار لما ذكر في السورتين . فيقول رحمه الله (ولم تذكر القصة هنا – سورة يونس – بنفس السياق الذي وردت به في سورة الأعراف بل يلحظ المتأمل أن الله تعالى قد صرح في سورة الأعراف بأنه قد أرسل نوحاً إلى قومه , ثم ذكر سبحانه حواراً دار بين نوح الرسول وبين قومه , هو يدعوهم إلى عبادة الله وحده خائفاً عليهم من العذاب العظيم وهم يتهمونه بالضلالة (إنا لنراك في ضلال مبين) وهو ينفيها عن نفسه (يا قوم ليس بي ضلالة و لكني رسول من رب العالمين) .

ويبين مهمته فيقول (أبلغكم رسالات ربي و أنصح لكم و أعلم من الله ما لا تعلمون) و يستنكر تعجبهم من أن جاءهم ذكر من ربهم على لسان واحد منهم لينذرهم حتى يؤمنوا و يكونوا من المتقين .

وأنهى الحق هذا الحوار بقوله (فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين) .

١- ينظر : التفسير القرآني ٤ / ١٠٤٩ .

وأما هنا فلم يرد الحوار المسوق في الأعراف بل هو كلام من نوح لقومه يلمح فيه مدى الجهد الذي بذله نوح في دعوتهم إلى التوحيد , والمدة الزمنية التي قضاها عليه السلام بينهم داعياً إلى الله والحقد الذي أظهروه له , والمكر الذي أرادوه به , ثم يبرز السياق نوحاً عليه السلام هنا قوياً كأقوى ما يكون مستمداً قوته من ثقته بالله و توكله عليه و عدم طمعه في الدنيا .

ثم يورد سبحانه النتيجة , فإذا هي في يونس ليست كما كانت في الأعراف بل يضاف إليها أنه جعل الناجين منهم بسبب الإيمان خلائف في الأرض , فسبحان من هذا كلامه , ظاهرة مكرر , وحقيقته أنه لا تكرار فيه) (١) .

ويذكر صاحب الظلال رحمة الله أن القصة في هذه السورة قد خدمت السياق الذي وردت فيه و ناسبت الإطار العام للسورة الكريمة فيقول رحمة الله (إن الحلقة التي تعرض هنا من قصة نوح , هي الحلقة الأخيرة , حلقة التحدي الأخير , بعد الإنذار الطويل , والتذكير الطويل , ولا يذكر في هذه الحلقة موضوع السفينة , ولا من ركب فيها و لا الطوفان , ولا ... سيلات في تلك الحلقة لأن الهدف هو إبراز التحدي والاستعانة بالله وحده ونجاة الرسول ومن معه وهم قله , وهلاك المكذبين له وهم كثرة و قوة , لذلك يختصر السياق هنا تفصيلات القصة إلى حلقة واحدة , ويختصر تفصيلات الحلقة الواحدة إلى نتائجها الأخيرة لأن هذا هو مقتضى السياق في هذا الموضع) (٢)

ويؤكد الأستاذ سعيد حوى في كتابه الأساس في التف... ن قصة نوح عليه السلام في سورة يونس قد خدمت سياق السورة , كما خدمت القصة في سورة الأعراف

---

١ – ينظر : نوح عليه السلام في القرآن و التوراة د / هاشم جودة ص ٢٦ , ٢٧ رسالة دكتوراة بكلية أصول الدين بالقاهرة .

٢– ينظر : الظلال ٣ / ١٨١٠ .

سياق السورة التي وردت فيها ولا يوجد تكرار لما ذكر فيهما فيقول رحمه الله (نلاحظ هنا أنه جاءت قصة نوح ﷺ ثم قصة موسى وفرعون ، ومن قبل هذه في سورة الأعراف ذكرت قصة نوح وقصة فرعون مع موسى ، وستتكرر قصة موسى وفرعون ، وقصة نوح أكثر من مرة في القرآن مرة بشكل مطول ومرة بشكل مختصر ، فلم تتكرر القصة الواحدة :

أذكر منها شيئين : -

الأول : أن كل مكان ترد فيه فإنها تخدم سياق السورة التي وردت فيها موضوعها و محلها في الترتيب القرآني ، وقد لاحظنا هنا أن قصة نوح خدمت السياق العام لسورة يونس ، وهي نفي العجب ، وجدية الإنذار كجزء من معالجة الشك في القرآن ، بينما قصة نوح في سورة الأعراف خدمت سياق سورة الأعراف في قضية إنزال الهدى وموقف الناس منه وعاقبة ذلك ، وهكذا في كل مكان ، فإن القصص تخدم سياق السورة وموضوعها العام ومحورها في الترتيب القرآني الكبير .

الثاني : إن القرآن الذي من خصائصه أنه موعظة من ربكم هذا القرآن تأتي القصة فيه في إطار تحقيق العظة ، والقصة الواعظة ترد مرة في السورة الطويلة ، ومرة في السورة المتوسطة ، ومرة في السورة القصيرة ، ومرة في قسم ، ومرة أو مرتين أو أكثر في قسم آخر ، ليأخذ التالي من حيث تلا العظة من الحادثة البليغة .

فإذا استقر هذان الشيئان في الذهن نقول : إن قصة نوح في هذا المقام تخدم سياق سورة يونس ، فهي تخدم نفي العجب عن إرسال الرسول المنذر ، وهي تخدم قضية شفاء القلب من الشك ، وهي في الوقت نفسه تربي المؤمن على

المواقف الصحيحة تجاه الكافرين ، وهي المواقف التي يمليها الإيمان بالوحي المنزل) [1] .

ومما سبق ذكره يتبين لنا أن قصة نوح عليه السلام في سورة يونس قد ناسبت السياق التي وردت فيه وتلاءمت مع الإطار العام للسورة الكريمة ولا يوجد فيما ذكر فيها تكرار لما ذكر في سورة الأعراف .

السورة الثالثة : سورة هود عليه السلام : و هي السورة الحادية عشر في ترتيب المصحف .

والسورة الكريمة شأنها شأن كل السور المكية قد اهتمت بما يلي : -

١- ترغيب الناس في طاعة الله ، و تحذيرهم من معصيته .

٢- إقامة الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله و ليس من كلام البشر .

٣- تسلية الرسول ﷺ عما لحقه من أذى ، وما أصابه من اضطهاد ، وما تعرض له من اعتداء .

٤- بيان حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين .

ومن أجل ذلك ساقت السورة الكريمة قصصاً لبعض الأنبياء مع أقوامهم لتحقيق هذه الأهداف .

فقد ذكرت نواحي متعددة من قصة نوح مع قومه ، ومن قصة هود مع قومه ، ومن قصة صالح مع قومه ، ومن قصة شعيب مع قومه ، ومن قصة لوط مع قومه ، وقد تحدثت خلال كل قصة عن المسالك الخبيثة والمجادلات الباطلة

---

١ - ينظر : الأساسي في التفسير ٥ / ٢٤٩٣ و ما بعدها .

التي اتبعها الطغاة مع أنبياءهم الذين جاءوا لسعادتهم وهدايتهم ، وختمت كل قصة ببيان عاقبة المؤمنين ، وعاقبة المكذبين .

يقول صاحب الظلال رحمة الله (القصص في هذه السورة هو قوامها ، ولكنه لم يجيء فيها مستقلاً إنما جاء مصداقاً للحقائق التي جاءت السورة لتقريرها والتي أجملها السياق في مطلع السورة) ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ، أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ، وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ، إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [1] . وقد تضمن مطلع السورة جولات متعددة حول هذه الحقائق ، جولات في ملكوت السموات والأرض ، وفي جنات النفس ، وفي ساحة الحشر ، ثم أخذ في هذه الجولة الجديدة في جنبات الأرض ، وإطواء التاريخ مع قصص الماضين يستعرض حركة العقيدة الإسلامية في مواجهة الجاهلية على مدار القرون .

والقصص هنا مفصل بعض الشيء وبخاصة قوم نوح والطوفان وهو يتضمن الجدل حول حقائق العقيدة التي وردت في مطلع السورة والتي يجيء كل رسول لتقريرها وكأنما المكذبون هم المكذبون وكأنهم طبيعتهم واحدة وعقليتهم واحدة على مدار التاريخ) [2] .

وقد بدأت القصة في السورة الكريمة من خلال الآية الخامسة و العشرين إلى نهاية الآية التاسعة والأربعين وفيها يقول الله تعالى :

---

١ – سورة هود الآيات من ١ – ٤ .

٢– ينظر : الظلال ٤ / ١٨٧٠ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ، أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ
إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ، فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ
بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا
مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ، قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ
وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ، وَيَا قَوْمِ
لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو
رَبِّهِمْ وَلَـكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ، وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ
أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ، وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ
وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي
إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ، قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ، قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ، وَلاَ يَنفَعُكُمْ
نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ، أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا
تُجْرَمُونَ ، وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ
بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ، وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ
إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ، وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن
تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ
يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ، حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا
مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ
قَلِيلٌ ، وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ، وَهِيَ
تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا
وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ، قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ
الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ، وَقِيلَ يَا
أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى

الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ، قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ، قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَركَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ، تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

فالآيات تبدأ حديثها عن نوح عليه السلام بالقسم من الله تبارك وتعالى بأن الله قد أرسل نوحاً إلى قومه فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته ، ثم حذرهم من عبادة غير الله ، لأن هذه العبادة ستؤدي بهم إلى الوقوع في العذاب الأليم ، فرد عليه السادة من قومه قائلين له يا نوح لست إلا بشراً مثلنا ، وأتباعك هم أحقرنا شأناً ، وما نرى لك و لمتبعيك شيئاً من الزيادة علينا لا في العقل ولا في غيره ، بل إننا لنعتقد أنكم كاذبون في دعواكم أنكم على الحق ، لأن الحق في نظرنا هو عبادة هذه الأصنام التي عبدها من قبلنا آباؤنا .

فرد نوح عليه السلام على قومه قائلاً لهم : يا أهلي وعشيرتي أخبروني إن كنت على بصيرة من أمري وحجة واضحة من ربي بها يتبين الحق من الباطل ، وقد منحني الله بفضله و إحسانه النبوة التي هي طريق الرحمة لمن آمن بها واتبع من اختاره الله لها ، فأخفيت عليكم هذه الرحمة ، وغاب عنكم الانتفاع بهداياتها ، لأنكم ممن استحب العمى على الهدى ، فهل أستطيع أنا وأتباعي أن نجبركم إجباراً على الإيمان بي وعلى التصديق بنبوتي ، وأنتم كارهون لها نافرون منها إننا لا نستطيع ذلك .

ويا قومي أنا لا أطلب منكم مالاً مقابل تبليغ ما أمرني ربي بتبليغه إليكم ، لأن الله وحده هو الذي يثيبني على دعوتي إلى عبادتكم له ، وما أنا بطارد الذين آمنوا بدعوتي ، لأن مصيرهم إلى الله تعالى فيحاسبهم على سرهم وعلنهم أما أنا فأكتفي منهم بظواهرهم التي تدل على صدق إيمانهم ، وشدة إخلاصهم ، ولكني أراكم قوماً تجهلون القيم الحقيقية التي يقدر بها الناس عند الله ، وتجهلون أن مرد الناس جميعاً إليه وحده سبحانه .

ويا قومي من الذي يحميني ويجيرني من عذاب الله إن طردت هؤلاء المؤمنين من مجلسي ، أفلا تتذكرون أن لهم رباً ينصرهم إن طردتهم .

ولم يكتف نوح عليه السلام بهذه العبر و العظات التي أخبر قومه بها بل أخذ يبين لهم حقيقة أمره ويرد على شبهاتهم التي أثاروها قائلاً لهم أنا لا أقول لكم إن النبوة التي وهبني الله إياها ، تجعلني أملك خزائن أرزاقه سبحانه ، فأصبح من الأغنياء ، وأعطى من أشاء بغير حساب ، وأيضاً : لا أقول لكم إني أعلم الغيوب التي اختص الله بعلمها ، أو أزعم أن لي صلة بالله غير صلة النبوة ، ولا أقول لكم إني من الملائكة بل أنا بشر مثلكم آكل مما تأكلون منه وأشرب مما تشربون منه ، ولا أقول لكم أيضاً في شأن الذين تنظرون إليهم نظر احتقار واستصغار إنهم كما تزعمون لن يسعدهم الله في دنياهم وأخراهم ، بل أقول لكم إن الله سبحانه وتعالى سيؤتيهم ما يحقق لهم السعادة إذا شاء لأنه سبحانه عليم بما في نفوسهم من خيراً وشراً وإني لمن الظالمين لنفسي ولغيري إذا إدعيت غير ذلك

وعندما عجز القوم عن الرد على نبيهم بأسلوب مقارعة الحجة بالحجة قالوا يا نوح قد خاصمتنا وحاججتنا فأكثرت جدالنا ، ولم تدع لنا حجة إلا أبطلتها ورددتها حتى سئمنا ومللنا ، فأتنا بما تعدنا به من العذاب في الدنيا و الآخرة ، إن كنت من الصادقين في قولك إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم .

فرد نوح عليهم بقوله :- إنما يأتيكم بهذا العذاب الذي تستعجلونه الله تعالى وحده إن شاء ذلك لأنه هو الذي يملكه وما أنتم بمستطيعين الهروب من عذابه متى اقتضت مشيئته أنزل العذاب بكم, لأنه تعالى لا يعجزه بشيء ، ولا ينفعكم نصحي لكم وإخلاصي معكم في شيء أبدا إن أردت ذلك إن كان الله يريد أن يغويكم فلا ينفعكم نصحي أبدا بسبب إصراركم علي الجحود والعناد ، وإلي الله وحده المرجع و المثاب ليجازيكم الجزاء الذي تستحقونه .

فأصر الملأ على تكذيبه و الإعراض عن دعوته فأوحى الله إليه بأنه يا نوح لن يؤمن من قومك إلا من آمن بالفعل فلا تحزن على كفرهم و لا تبتئس لفعلهم فقد سبق فيهم القضاء, و حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم مغرقون , فاصنع الفلك برعايتنا وتوجيهنا و إرشادنا لتكون وسيلة لنجاتك من الغرق أنت ومن آمن معك , ولا تخاطبني يا نوح في شأن هؤلاء الظالمين , فقد صدر قضائي بإغراقهم و لا راد لقضائي .

فامتثل نوح لأمر ربه وبدأ يصنع الفلك , وكلما مر عليه جماعة من أشراف قومه سخروا منه واستهزأوا به ظانين أنه مجنون , فرد عليهم نوح عليه السلام قائلاً لهم إن تسخروا منا اليوم لصنعنا الفلك فإنا في الوقت القريب سنسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق , وحان وقت نزول العذاب بكم .

ولما حان وقت نزول العذاب بالكافرين , وتحققت العلامات الدالة عليه , أمر الله نوحا عليه السلام أن يحمل معه في الفلك من كل نوع من أنواع المخلوقات التي هو بحاجة إليها , وأن يحمل فيها أيضا من آمن بدعوته من أهل بيته , وكذلك من آمن بدعوته من المؤمنين , وامتثل نوح لأمر ربه فحمل في الفلك من أمره ربه بحملهم معه , ثم قال لهم عند ركوب الفلك قولوا بسم الله جريها في هذا الطوفان العظيم , وباسم الله إرساءها في المكان الذي يريد الله تعالي إرساءها

فيه ، إن ربي لعظيم المغفرة ولعظيم الرحمة لمن كان مطيعا له مخلصا في عبادته .

فركب نوح ومن آمن معه في الفلك وهم يقولون باسم الله ، وأخذ الفلك يجري بهم ، وقبل أن يشتد الطوفان وترتفع أمواجه شاهد نوح ﷺ أحد أبنائه يدركه الغرق فقال له بعاطفة الأبوة يا بني اركب معنا في السفينة ولا تكن مع القوم الكافرين . فرد عليه ابنه قائلا سألتجئ إلي جبل من الجبال العالية لكي أتحصن به من وصول الماء إلي ، فقال له نوح ﷺ ، لا معصوم اليوم من عذاب الله إلا من رحمه الله بلطفه وإحسانه ، ثم كانت النتيجة أنه غرق مع الغارقين .

وبعد أن غرق الكافرون ونجا نوح ومن معه من المؤمنين أمر الله الأرض أن تبتلع ماءها ، والسماء أن تمسك عن إنزال الماء لتستقر السفينة بعد ذلك علي الجبل المذكور في القرآن .

ولما رأي نوح ﷺ نهاية القوم الظالمين ، وأن ابنه كان معهم نادي علي ربه أن يرحم ابنه ، لأنه من أهله الذين وعدهم الله بنجاتهم ، فرد الله عليه قائلا له : بان ابنك هذا ليس من اهلك الذين وعدتك بنجاتهم بل هو ممن سبق عليه القول بسبب كفره ، ولا تسألن يا نوح شيئا ليس لك به علم صحيح إنه حق وصواب إني أعظك أن تكون من الجاهلين .

فتنبه نوح ﷺ إلي ما أرشده إليه ربه فبادر بطلب الصفح والغفران حتى لا يكون من الخاسرين .

فبشره ربه بقبول توبته وقال له يا نوح اهبط من السفينة مصحوبا منا بالأمان مما تكره وبالخيرات النامية والنعم الثابتة عليك وعلي أمم متشعبة

ومتفرعة وناشئة من الأمم المؤمنة التي ستهبط معك بعد أن أنجاكم الله بفضله ورحمته من العذاب الذي حل بالكافرين من قومك ,وأمم من الذرية سنمتعهم في الدنيا ثم نضطرهم إلي عذاب أليم في الآخرة وذلك لكفرهم وعنادهم [١] .

تلك هي قصة نوح مع قومه كما وردت في السورة الكريمة , وهي قصة طويلة تميزت بذكر ما دار بين نوح وقومه بالتفصيل ,ثم ذكر النهاية لهم وبناء السفينة, وذكر قصة ابن نوح حتى لا يطمع والد في ولده ولا ولد في والده , بل كل نفس بما كسبت رهينة .

ولا يوجد فيما ذكر في هذه القصة تكرار لما ذكر في سورتي الأعراف ويونس وإن بدا في أول الأمر التوافق بين بداية القصة الواردة عن نوح في سورة الأعراف وبين بداية القصة هنا في سورة هود ففي سورة الأعراف يقول تعالي (لقد أرسلنا نوحا) وهنا يقول تعالي (ولقد أرسلنا نوحا) .

إلا أنه بعد قراءة القصة هنا (تجد مناقشة قوية بين دعوة الحق وجحود أهل الباطل , ترى فيها صاحب الحق يدلي بالبينات , وترى فيها أهل الباطل يتخذون من الحس دليلا علي الحق وحسهم كاذب فيستدلون علي أن الدعوة ليست دعوة حق بأن أتباعها الفقراء الأرذلون في أعينهم الذين يزدرونهم , والنبي ﷺ يجادلهم بالتي هي أحسن , وهو يسوق البينات , ولكنهم يتبرمون بدعوة الحق , فيخبره ربه بأنه بلغ الرسالة ,ولن يؤمن أحد من قومه لم يكن قد آمن ,وأن العقاب نازل لا محالة , ويأمره بان يصنع السفينة فيقوم بصنعها والقوم ينظرون إليه ساخرين غير عالمين بالعاقبة التي تنتظرهم) والغاية التي قدرها الله تعالي من هذا البناء وتجد ذلك التنور وقد فار إيذانا باقتراب وقت الطوفان

---

١ – ينظر : الوسيط في تفسير القرآن ١٨٩/٧ وما بعدها بتصرف واختصار والتفسير الواضح د/محمد حجازي ٢/ ١١٧ وما بعدها بتصرف واختصار

الذي لم يبق أحدا إلا من أمن , وتجد حنان الأب ورفقه بولده , والابن وقد غره غرور الصبا , والابتعاد عن التصديق , حتى حسب انه بمنجاة من الغرق , إذا اعتصم بجبل اوي إليه , وحال بينه وبين أبيه الموج , فكان من المغرقين , والأب تنفطر نفسه فتغلبه شفقة الأبوة عن رؤية أمارات الموت ويتجه إلى ربه باكيا حزينا , إذ نجا أهله إلا ابنه فينبيه الله تعالي إلي الواجب ويبين له أن ابنه داخل في عموم الكافرين ,

فيناجي ربه قائلا " رب إني أعوذ بك أن أسالك ما ليس لي به علم ولا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين " (١) .

قصة مفصلة متكاملة لا تجد لها نظيراً في بقية سور القرآن الواردة فيها القصة فضلاً عن أن يوجد فيها تكرار لما ذكر في سورتي الأعراف و يونس .

والقصة جاءت مناسبة للسياق الذي وردت فيه و تلاءمت مع الإطار العام للسورة الكريمة .

أما مناسبتها للسياق الذي وردت فيه فقد حدثنا عن ذلك الأستاذ عبد الكريم في تفسيره فقال (إنها تعرض من الماضي صورة الصراع بين الحق والباطل وبين المحقين و المبطلين بعد أن عرضت الآيات السابقة موقفاً قائماً بين النبي وقومه وما يدعوهم إليه من هدى وخير وما يلقونه به من صد و تكذيب .

وفي ذكر أخبار الأولين وما في تلك الأخبار من مواقف مشابهة للأحداث الجارية التي يعيش فيها الناس يومهم هذا , تذكير لهم بتلك الحقيقة التي تقررت

١- ينظر : معجزة القرآن د / محمد أبو زهرة ص ١٣٥ و ما بعدها بتصرف .

بحكم الواقع ، وهي أن النصر دائما للمؤمنين ، وأن الخزي والهوان دائما علي المكذبين الكافرين) (١) .

أما ملاءمة القصة للإطار العام للسورة الكريمة فقد ظهر في أثناء عرض القصة طمأنة الرسول والمؤمنين معه ، وقطع حجة الكافرين وإخبار أهل مكة بان محمدا لم يأت بهذا القرآن من عند نفسه إنما هو من عند الله ، وذلك من خلال قوله تعالي في أثناء القصة ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ ﴾ .

والمعني لقد سقنا لك يا محمد من أخبار السابقين ما هو الحق الذي لا يحوم حوله باطل ، ولكن المشركين من قومك لم يعتبروا بذلك ، بل يقولون انك قد افتريت هذا القرآن فقل لهم : إن كنت قد افتريته علي سبيل الغرض ، فعلي وحـدي إجرامـي وافترائي الكذب وأنا برئ من عقوبة إجرامكم وافترائكم الكذب (٢).

وأيضا من خلال ما ذكر في نهايتها من قوله تعالي : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

أي تلك القصة التي قصصناها عليك من أخبار الغيب الماضية ولا يعلم تفاصيلها أحد سوانا ، فاصبر علي أذي قومك كما صبر أخوك نوح من قبل فان العاقبة الحسنة والطيبة للمؤمنين .

---

١ – ينظر : التفسير القرآني للقرآن ١٢٨/٤ وما بعدها .

٢- ينظر : التفسير الوسيط ٢٠٠/٧ .

يقول الرازي في تفسيره (فان قال قائل : إنه تعالي ذ كر هذه القصة في سورة يونس , ثم إنه أعادها ههنا مرة أخري فما الفائدة في هذا التكرير ؟)

قلنا : إن القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه :

ففي السورة الأولي كان الكفار يستعجلون نزول العذاب , فذكر تعالي قصة نوح في بيان أن قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان ليظهر ثم في العاقبة ظهر فكذا في واقعة محمد .

وفي هذه السورة (هود) ذكر هذه القصة لأجل أن الكفار كانوا يبالغون في الإيحاش فذكر الله تعالي هذه القصة لبيان أن أقدام الكفار علي الإيذاء والإيحاش كان حاصلا في زمان نوح عليه السلام إلا أنه عليه السلام لما صبر نال الفتح والظفر , فكن يا محمد كذلك لتنال المقصود , ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة في كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خاليا عن الفائدة) [1] .

ومما سبق ذكره يتبين لنا أن قصة نوح عليه السلام في سورة هود قد ناسبت السياق الذي وردت فيه وتلاءمت مع الإطار العام للسورة الكريمة ولا يوجد فيما ذكر فيها تكرار لما ذكر في سورتي الأعراف ويونس .

السورة الرابعة : سورة الأنبياء عليهم السلام , وهي السورة الحادية والعشرون في ترتيب المصحف .

والسورة الكريمة شأنها شأن كل السور المكية , ذكرت أدلة متعددة علي وحدانية الله تعالي , وعلي صدق الرسول فيما يبلغه عن ربه , وعلي أن يوم القيامة حق كما ذكرت شبهات المشركين وردت عليها بما يبطلها , كما ساقت

١- ينظر : تفسير الرازي ٩/ ٨ .

نماذج متعددة من قصص الأنبياء عليهم السلام . وفي نهاية حديثها عنهم ، عقبت بالمقصود الأساسي من رسالتهم ، وهو دعوة الناس جميعا إلي إخلاص العبادة لله تعالي ، وأنهم جميعا قد جاءوا برسالة واحدة في جوهرها فقال تعالي : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (١) .

وقد بدأت القصة في السورة الكريمة من الآية السادسة والسبعين إلي نهاية الآية السابعة والسبعين ، وفيها يقول الله تعالي : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ، وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢) .

فالآيتان يتحدثان عن نوح عليه السلام بأنه دعا على قومه بالهلاك قبل غيره من الأنبياء الذين جاءوا بعده ، فاستجاب الله له ، وأنزل بهم الهلاك وأغرقهم بالماء ، وأنجى نوحاً والمؤمنين معه من الغرق والكذب الشديد ونصره على القوم الكافرين المكذبين و ذلك جزاء الظالمين .

تلك هي قصة نوح كما وردت في السورة الكريمة ، وقد جاءت مختصرة في آيتين يقول الله فيهما أن نوحاً عليه السلام نادانا من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين معه في السورة فأجبناه بنجاته و هلاك المكذبين .

والقصة في السورة الكريمة قد ناسبت السياق الذي وردت فيه وتلاءمت مع الإطار العام للسورة الكريمة .

١- سورة الأنبياء آية رقم ٩٢ .

٢ - سورة الأنبياء الآيات رقم ٧٦ ، ٧٧ .

ففي بداية السورة الكريمة يذكر الحق تبارك و تعالى لنبيه أنه قد أرسل إلى الأمم السابقة رسلاً من البشر يدعونهم إلى عبادة الله و توحيده , فما كان منهم إلا أنهم كفروا بربهم و كذبوا أنبيائهم فأهلكناهم و أنجينا المؤمنين .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ، وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ،ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١) .

ثم جاءت قصة نوح في السورة لتأكيد هذه الحقيقة .

وفي السورة أيضاً يأتي قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) .

فالآية الكريمة يخاطب الله فيها نبيه مبيناً له أن الأنبياء و الرسل الذين بعثهم الله من قبلك جميعاً من عهد نوح إلى عهده كلهم أمه واحدة والله الواحد رب الجميع , وقد سبقت قصة نوح وغيره من الأنبياء في السورة لتثبيت هذه الحقيقة و توكيدها في النفوس , لأن الحق سبحانه وتعالى عقب على جميع القصص الواردة في السورة مخاطباً جميع الرسل على لسان أخيهم محمد ﷺ بقوله : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (٣) .

و يقول الأستاذ سعيد حوى رحمة الله في تفسيره زيادة على ما سبق :

---

١ – سورة الأنبياء الآيات من ٧ – ٩ .
٢ – سورة الأنبياء آية رقم ٢٥ .
٣ – سورة الأنبياء آية رقم ٩٢ .

١- إن أول شيء يربط القصة بسياق السورة هو كونه بشراً رسولاً و هو الشيء الذي حاول المشركون استبعاده . كما ذكر الله في أول السورة ﴿ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [1] .

٢- في قصة نوح ﷺ بيان لعاقبة مكر الكافرين . إذ عوقبوا بسببه وفي هذا تذكير للمشركين بما قصه الله في السورة عن حال المعرضين إذ ينزل بهم العقاب .

٣- أن قصة نوح تدل على أن العبرة بالخواتيم . فقد أنجاه الله و نصره على القوم الكافرين . وفي ذلك إشارة إلى أن استعجال المعرضين عن الوحي للعذاب يدلل على جهلهم بسنة الله [2] .

والقصة ههنا لم تذكر بنفس الصورة التي ذكرت بها في السورة السابقة . وإنما ذكر جانباً منها لم يذكر في الأعراف . ولا في يونس . ولا في هود . وهو أن نوحا استغاث بالله من قومه و ناداه لينصره عليهم . وأن الله قد أجاب هذا الدعاء ونصر نوحا ونجاه و أهله من الكرب العظيم.

ومما سبق ذكره يتبين لنا أن القصة في السورة الكريمة قد ناسبت السياق الذي وردت فيه وتلاءمت مع الإطار العام للسورة ولا يوجد فيما ذكر فيها تكرار لما ذكر في السور السابقة التي وردت فيها القصة .

السورة الخامسة : سورة المؤمنون : وهي السورة الثالثة والعشرون في ترتيب المصحف .

---

١ - سورة الأنبياء آية رقم ٣ .
٢ - ينظر : الأساس في التفسير ٧ / ٣٤٧٩ بتصرف .

وشأنها كشأن غيرها من السور المكية (إلا أنها تمتاز عن غيرها من السور المكية بأنه يغلب عليها طابع تقرير النبوة ، حيث أنكر الكفار نبوة محمد ﷺ لكونه بشراً يأكل الطعام و يمشي في الأسواق ترفعاً منهم ، أن يرسل إليهم بشراً مثلهم يقودهم

﴿ وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ ، وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ (٢) .

فجاءت هذه السورة لتبين من يستحق الاصطفاء والرفعة من البشر ، ألا ترى أنها بدئت ببيان من أفلح من المؤمنين و صفاتهم ، ثم بينت أصل الإنسان وتطوره ، ليؤمن بقدره الله وأنه هو الخالق البارئ ، وأن من قدر على ذلك فهو القادر على كل شيء .

ثم تعرضت لنعم الله علي الإنسان حيث أنزل من السماء ماء ، وأنشأ لك يا بن آدم أناثا " **وعليها وعلى الفلك تحملون** " (٣) . أيليق بك أن تعصى أمره وتخالف نبيه ؟

ثم ضربت الأمثال بقصص الأنبياء و الأمم السابقة ، ضاربة على وتر واحد في هذه السورة ، مبينة أن سبب الكفر فكرة خاطئة و هي أن البشرية تتنافى مع الرسالة ، فكل من ادعى النبوة من البشر ليس نبياً حقاً .

---

١ – سورة الأنعام الآيتان رقم ٨ / ٩ .
٢ – سورة الفرقان آية رقم ٧ .
٣ – سورة المؤمنون آية رقم ٢٢ .

كل هذا تسلية للرسول ﷺ ليعلم أنه ليس بدعاً من الرسل ، وأن الناس هم الناس و أن طريقة التكذيب واحدة ، وأن النهاية واحدة للجميع " فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين "[1] [2] .

ثم ذكر قوام البشرية الصحيحة أن يأكل الناس و الرسل من الطيبات ، و أن يعملوا الصالحات ، و ألا يغتروا بما أوتوا من مال و بنين ، فإن الكريم عند الله هو التقي الأمين .

ثم أخذ يصور لهم بعض مشاهد القيامة تصويراً رائعاً يزلزل القلوب ، و طلب من نبيه أن يذكر لهم هذه المشاهد التي يظهر فيها حال المؤمن و حال الكافر .

وقد بدأت القصة في السورة الكريمة من الآية الثالثة و العشرين إلى نهاية الآية الثلاثين و فيها يقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ، فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ، إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ، قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ، فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ، فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ

---

١ – سورة المؤمنون آية رقم ٤١ .
٢ – ينظر : الموافقات للشاطبي ٣ / ٣٥٣ بتصرف .

لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾

فالآيات تبدأ حديثها عن نوح بالقسم من الله بأن الله أرسله إلى قومه ليدعوهم إلى عبادة الله وحده الذي لا يستحق العبادة غيره ، فدعاهم نوح إلى عبادة الله وتوحيده ، لكن أشراف قومه كرهوا أن يدعوهم نوح إلى عبادة الله وتوحيده محتجين بأنه من عامة الناس ويريد أن تكون له السيادة عليهم ، ولو شاء الله كما يدعى نوح أن يرسل رسولاً لأنزل ملائكة من السماء رسلاً عنه فإن هذا أدعى للإيمان و أدل على الصدق ، فما سمعنا بهذا الكلام الذي جاءنا به نوح في آباءنا الأولين ، الذين ندين بإتباعهم ، ونقتدي بهم في عبادتهم لهذه الأصنام ، وما نوح إلا رجل مجنون فانتظروا موته وهو آت بلا شك و ستستريحون منه .

فلما ضاق صدر نوح منهم و من أعمالهم دعا ربه به أن ينصره عليهم بسبب تكذيبهم له ، و سخريتهم منه ، و إصرارهم على الكفر ، فأجاب الله دعاءه فأوحى إليك أن اصنع الفلك بأعيننا و تحت رعايتنا و حفظنا ، و سنرسل إليك و حينا ليرشدك إلى ما أنت في حاجة إليه من إتقان صنع الفلك .

فإذا جاء أمرنا و فار التنور وزاد الماء فأدخل في الفلك من كل حيوان زوجين اثنين ذكر وأنثى ليبقى التناسل في الدنيا وأحمل فيها أهلك الذين آمنوا فقط لكن من سبق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون فلا تحملهم ، و لا تخاطبني يا نوح في شأن هؤلاء الكافرين فإنهم مغرقون لا محالة .

فإذا استويت يا نوح أنت ومن معك في الفلك فقل أنت و هم الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين ، وقل عند النزول منه أيضاً رب أنزلني منزلاً مباركاً و أنت خير المنزلين .

ثم بين الحق سبحانه وتعالى ما اشتملت علية القصة من عبر وعظات فقال إن في هذه القصة لآيات واضحات تدل علي قدرتنا ووحدانيتنا وعلي تمام حكمتنا وعدلنا ، نبتلي الناس بالنعم والنقم ، وبالخير و بالشر لنميز الخبيث من الطيب ، و ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة (١) .

تلك هي قصة نوح كما وردت في السورة الكريمة ، وهي من القصص الطوال التي تحدثت عن نبي الله نوح عليه السلام بعد القصة الطويلة الواردة عنة في سورتي هود ونوح عليهما السلام .

وقد ذكرت القصة هنا أن نوحا أرسله الله إلى قومه ليدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له فامتنع الملأ عن قبول الرسالة محتجين بأن الله له ملائكة صالحين لإبلاغ ما يريد الله إبلاغه إلى الناس ، وليس البشر أمثال نوح أهلا لإبلاغ هذه الرسالة ، فيأمر الله نوحا بصنع الفلك ليركب هو والمؤمنون معه واثنان من كل جنس من أجناس الطير وغيره من أهل الأرض وذلك إذا رأى الماء يفور من التنور ففعل فأغرق الله الكافرين من قومه و أنجاه هو ومن آمن معه .

وبالطبع لم يكن هذا العرض واردا في سورة المؤمنون وحدها إنما وردت في سور أخرى كالأعراف وهود ولكن سرعان ما يظهر عدم التشابه وعدم التكرار في العرض للقصة بعد قراءة الآية الأولي للقصة في كل سورة .

فمثلا في سورة المؤمنون يأمر الله نوحا عليه السلام أن يصنع سفينة ويركب فيها هو ومن آمن معه عندما يرى الماء يفور من التنور ،ولم تذكر السورة

---

١ – ينظر : التفسير الوسيط ١٠ /٢٤وما بعدها بتصرف واختصار

امتثال الرسول لأمر ربه كما ذكرت سوره هود التي حكت أحداث أكثر فذكرت أن الرسول فعل ما أمره به ربه وكان من أمر السفينة ما كان .

وأيضا في سوره المؤمنون بعض الشبه التي أثارها الملأ من قوم نوح لرفضهم دعوته ، ولم تذكر السورة هنا أن نوحا قام بالرد علي هذه الشبة كما حدث في سورتي هود والأعراف .

وأيضا :- في السورة الكريمة وصف الملأ نوحا عليه السلام بالجنون ولم يرد ذلك الوصف في السورة الأخرى .

وأيضا في السورة الكريمة أرشد الله نوحا علية السلام إلي ما يقوله عند ركوب السفينة وعند النزول منها ولم يرد ذلك القول في السور الأخرى .

هذا فضلا عن الألفاظ المختلفة والأساليب المتنوعة التي سيقت بها القصة هنا وسوف نزيد هذا الأمر إيضاحا في فصل قادم عقدناه لهذا الغرض .

والقصة الكريمة قد ناسبت السياق الذي وردت فيه و تلاءمت مع الإطار العام للسورة الكريمة و يوضح ذلك الأستاذ عبد الكريم الخطيب فيقول رحمه الله (كان ذكر نعمة الفلك في الآية السابقة في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ (١) مناسبة قوية تذكر بقصة نوح وبالسفينة التي جعلها الله مركب نجاة له ولمن آمن معه , وأن هذه السفينة لم تكن إلا نعمة من نعم الله , نجا عليها من آمن بها , وكذلك كل نعمة من نعم الله الكثيرة التي في أيدي الناس هي فلك نجاة يسلك بها الإنسان طريقه إلى الله و يستدل بها على قدرته وحكمته فيؤمن بها و يبتغي مرضاته , وبهذا ينجو من سخطه وعذابه الواقع بالظالمين المكذبين) (٢) .

١- سورة المؤمنون آية رقم ٢٢ .

٢- ينظر : التفسير القرآني للقرآن ٥ / ١١٢٨ .

ومما سبق يتبين لنا أن القصة في السورة الكريمة قد ناسبت سياق السورة التي وردت فيها و تلاءمت مع الإطار العام لها ، ولا يوجد فيها تكرار لما ذكر في السورة السابقة و خاصة سورتي هود والأعراف إلا في الظاهر فقط .

السورة السادسة : سورة الشعراء : وهي السورة السادسة و العشرون في ترتيب المصحف .

والسورة الكريمة شأنها شأن غيرها من السور المكية تهتم بإقامة الأدلة على وحدانية الله ، وعلى أن البعث حق ، وعلى صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله .

وقد ساقت السورة الكريمة قصصاً لبعض الأنبياء والمرسلين تسلية وتعزية بسبب تكذيب الكافرين له وأرشدته إلى ما يجب فعله نحو عشيرته ونحو المؤمنين بعد أن تحدثت في مطلعها عن سمو منزلة القرآن وعن موقف المشركين من الرسول ﷺ .

والسورة الكريمة : جاءت تخفف عن النبي ﷺ الألم الناشئ عن تكذيب الكفار " لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين " مع تهديدهم بإنزال العذاب من السماء فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء من سبقهم من الأمم ليكونوا عبرة وعظة لهم ، فليسوا خيراً منهم ، ولا أقوى ، ولا أكرم عند الله وليس في يدهم وثيقة يتمسكون بها حتى لا يصيبهم ما أصاب غيرهم .

وقد بدأت القصة في السورة الكريمة من الآية الخامسة بعد المائة إلى نهاية الآية الثانية والعشرين بعد المائة وفيها يقول الله تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا

عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ، قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ ، قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ، قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ، فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

فالآيات تبدأ حديثها عن نوح عليه السلام بما يدل على أن قومه قد كذبوه بعدما دعاهم إلى عبادة الله وتوحيده , وأن التكذيب برسول هو تكذيب بالرسل أجمعين وقد بين لهم أنه معروف لديهم فهو أخوهم يعرفون عنه من شرف النسب وكرم الخلق , وصدق الحديث ما يعرفون وما دام الأمر كذلك فليتقوا الله وليطيعوه كما أمرهم فهو لا يطلب على دعوته مالاً ولا جاها فإن أجره على الله فليتقوه سبحانه وليطيعوه عليه السلام .

فكان رد القوم عليه يا نوح أنؤمن لك وقد اتبعك فقراء الناس و أصحاب الحرف الدنيئة فينا ؟

فرد عليهم نوح عليه السلام قائلاً لهم أنا لم أكلف بالعلم بأعمالهم وأحسابهم وأنسابهم إنما كلفت بدعواهم للإيمان برب العالمين فاستجابوا لي ،وما أنا بطارد المؤمنين مهما كانوا عليه من فقراً وضعف فما أنا إلا نذير مبين . فلم يرض قومه بهذا الكلام فقالوا له لئن لم تنته يا نوح عن مجادلتك لنا ومن دعوتك إيانا إلى ترك عبادة الأصنام لتكونن من المرجومين بالحجارة المقتولين شر قتله .

فلما يئس نوح من إيمان قومه تضرع إلى ربه فقال رب إن قومي كذبون فاحكم بقدرتك العادلة بيني و بينهم حكماً من عندك تنجي به أهل الحق . وتمحق

أهل الباطل . فاستجاب الله لدعاءه و حقق رجاءه فأنجاه هو ومن آمن معه في الفلك المملؤ بهم و بكل ما يحتاجون إليه من وسائل المعيشة وفي ذلك آية كبرى تدل على وحدانيتنا و قدرتنا و ما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم فاعتبروا يا أولي الأبصار [١] .

تلك هي قصة نوح كما وردت في السورة الكريمة وقد ناسبت السياق الذي وردت فيه يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب رحمه الله (وعلى نهج القرآن الكريم في تنويع المعارض و الانتقال بالناس من مشاهد الحياة الدنيا إلى مشاهد القيامة , ثم العودة بهم إلى حيث هم في حياتهم الدنيا , وما هم فيه من غفلة , حيث تعرض عليهم الآيات و النذر ليكون لهم فيها عبرة ومزدجر , على هذا النهج جاءت قصة نوح وما بعدها من قصص الأنبياء مع أقوامهم ليرى هؤلاء المشركون من أهل مكة , بعد أن عادوا لتوهم من مشاهد القيامة , وما يلقى فيها أهل الضلال من عذاب و نكال لعل في هذا ما يفتح لهم طريقاً إلى الهدى والإيمان . وفي قصة نوح صورة واضحة على نحو مماثل تماماً لما يجري بين النبي وقومه) [٢]

وقد تناولت السورة قصة نوح وغيره من الأنبياء , مثل هود , وصالح , ولوط , وشعيب , ببداية واحدة لا يتغير فيها إلا اسم الرسول , فالسورة تقول في قصة نوح " كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسئلكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين "

---

١ – ينظر : التفسير الوسيط ١٠ / ٢٦٢ و ما بعدها بتصرف و اختصار
٢– ينظر : التفسير القرآني للقرآن ٥ / ١٤٢ .

ومثل ذلك يأتي في التقديم للقصص التالي لقصة نوح لتقول السورة أن كلمة المرسلين واحدة ، ولتكون النهاية واحدة ، وإن كان لكل رسول مع قومه موقف ربما يختلف في بعض التفاصيل عن سواه إلا أن التكذيب عاقبته في كل رسالة لا يختلف .

وكما تناولت السورة قصة نوح و غيره من الأنبياء ببداية واحدة ختمت نهاية كل قصة ببداية واحدة أيضاً قال تعالى : " **إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين و إن ربك لهو العزيز الرحيم**"

كأن الآيات تقول اتخذ يا رسول الله من إخوتك السابقين عبراً و ليتخذ قومك مثلها ، فلن تكون بدعاً من الرسل و لن تكون أمتك بدعاً من الأمم .

هذا وقد اشتملت قصة نوح في سورة الشعراء على ما اشتملت عليه سورة هود من تعيير القوم رسولهم بأن الذين اتبعوه أراذل القوم و لكن يأتي هنا ما لم يأت في سورة هود ولا في غيرها من السور توعد القوم لنبيهم بالقتل إذا لم يتوقف عن تلك الدعوة ، فيشكوا الرسول إلى ربه توعد قومه له فتكون النهاية .

ومما سبق ذكره يتبين لنا أن قصة نوح في السورة الكريمة قد ناسبت السياق الذي وردت فيه و تلاءمت مع الإطار العام للسورة الكريمة و لا يوجد فيما ذكر فيها تكرار لما ذكر في السور السابقة .

السورة السابعة : سورة العنكبوت : و هي السورة التاسعة و العشرون في ترتيب المصحف .

والسورة الكريمة شأنها شأن غيرها من السور المكية حدثتنا عن الإيمان وتكاليفه ، وعن سنن الله في خلقه ، وعن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم ، وعن هوان الشرك والشركاء ، وعما يعين المؤمن على طاعة الله ، وعن علاقة

المؤمنين بغيرهم ، وعن البراهين الساطعة الناطقة بأن هذا القرآن من عند الله ، وأن المؤمن لا يليق به أن يقيم في مكان لا يستطيع فيه أن يؤدي شعائر دينه ، وعن سوء عاقبة الأشرار ، وحسن عاقبة الأخيار .

وقد بدأت القصة فيها من الآية الرابعة عشرة إلى نهاية الآية الخامسة عشرة و فيها يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ، فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

فالآيتان يبدأن حديثهما عن نوح عليه السلام بالقسم من الله بأنه أرسله إلى قومه ليدعوهم إلى عبادة الله و توحيده ، فلبث فيهم يدعوهم إلى هذا الأمر ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ولكنهم كذبوه فأخذهم الطوفان وهم مستمرون على الظلم والكفر ، ثم أنجاه الله هو ومن ركب معه في السفينة ، وجعل هذه الحادثة عبرة وعظة للعالمين ، حيث شاهدوا سوء عاقبة الكفر و الظلم على مر الأيام و الأعوام .

تلك هي قصة نوح مع قومه كما وردت في السورة الكريمة و هي قصة مختصرة في آيتين إلا أنها تميزت هنا بما يلي : -

١ - ذكر المدة التي عاشها نوح بين قومه داعياً إياهم إلى عبادة الله وحده

٢ - أنها سمت إهلاك الله للقوم بأنه طوفان .

٣ - أنها سمت الفلك الذي نجى الله به نوحاً و من معه بالسفينة .

و قد ناسبت القصة السياق الذي وردت فيه و تلاءمت مع الإطار العام لها

يقول الأستاذ سعيد حوى (نلاحظ أن بداية السورة تحدثت عن الامتحان , ثم سار السياق فأشعرنا أن النصر في النهاية لأهل الإيمان , و جاءت بعد ذلك قصة نوح عليه السلام لترينا مقدار صبر الأنبياء وقوة استمرارهم مع شدة الظروف , وكيف أن العاقبة تكون لهم ومن ثم ذكرت الآيتان اللتان مرتا بقاء نوح يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً , مع شدة المقاومة والاستهزاء , والامتحان , والفتنة , هذا الزمن الطويل , ومع ذلك كان الصبر, وكان مع الصبر النصر) [١]

و يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب (مناسبة هذه القصة لما قبلها , هي أنها تعرض في إيجاز معجز صورة من صور الصراع بين الحق و الباطل , فتواجه بهذه الصورة هذا الصراع القائم بين المؤمنين و المشركين , بين النبي و المؤمنين معه , و بين المشركين و من اجتمع إليهم .

ففي هذه الصورة , يرى المشركون أنفسهم في قوم نوح , الذي طال مقامه فيهم حتى بلغ ألف سنة إلا خمسين عاماً , فلم ينفعهم هذا الزمن الطويل , الذي وقفوا فيه إزاء دعوة الحق , ولم تلتق طريقهم مع طريقة فكان أن أخذهم الطوفان , وهم متلبسون بكفرهم يحملون معهم إلى يوم الجزاء , أما نوح ومن آمن معه , بعد أن نجاهم الله , وكان في نجاتهم آية للعالمين , ويلاحظ أن قصة نوح تحمل إنذاراً بالهلاك العام الشامل للكافرين جميعاً) [٢].

ومما سبق يتبين لنا أن القصة في السورة الكريمة ناسبت السياق الذي وردت فيه و تلاءمت مع الإطار العام للسورة الكريمة و لا يوجد فيما ذكر فيها تكرار لما ذكر في السور السابقة .

---

١ – ينظر : الأساس في التفسير ٨ / ٤١٩١ .

٢– ينظر : التفسير القرآني للقرآن ٥ / ٤١٤ .

السورة الثامنة :سورة الصافات : وهي السورة السابعة والثلاثون في ترتيب المصحف .

والسورة الكريمة شأنها شأن غيرها من السور المكية (تهتم بإقامة الأدلة على وحدانية الله , وعلى أن البعث حق , وعلى أن الرسول صادق فيما يبلغه عن ربه , و تهتم أيضاً , بحكاية أقوال المشركين وشبهاتهم ثم ترد على تلك الأقوال والشبهات بما يزهقها ويبطلها , ثم تسوق ألواناً من المحاورات التي تدور بين المشركين فيما بينهم عندما يحيط بهم العذاب يوم القيامة , وألواناً من المحاورات التي تدور بينهم و بين أهل الجنة الذين نجاهم الله تعالى من النار وسعيرها .

ثم تسوق نماذج من قصص الأنبياء مع أقوامهم , تارة بشيء من التفصيل كما في قصة إبراهيم مع قومه , وتارة بشيء من التركيز و الإجمال كما في بقية قصص الأنبياء الذين ورد الحديث عنهم فيها .

وتمتاز بعرضها للمعاني و الأحداث بأسلوب مؤثر ترى فيه قصر الفواصل و كثرة المشاهد و المواقف مما يجعل القارئ لآياتها في شوق إلى ما تسوقه من نتائج [1] .

وقد بدأت القصة في السورة الكريمة من الآية الخامسة والسبعين إلى نهاية الآية الثانية والثمانين وفيها يقول الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ، وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ، وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ** ﴾

١- ينظر : التفسير الوسيط ١٢ / ٦٤ , ٦٥ بتصرف .

فالآيات تبدأ حديثها عن نوح ﷺ بالقسم من الله تعالى بأن نوحاً تضرع إليه و طلب منه أن ينصره على القوم الكافرين فاستجاب الله له ونجاه هو ومن آمن معه من الكرب العظيم الذي حل بأعدائه الكافرين ، وجعل ذريته هم الباقين الناجين .

وأبقى عليه في الأمم التي ستأتي من بعده إلى يوم القيامة الذكر الحسن والكلمة الطيبة وهي سلام على نوح في العالمين .

وهذا الجزاء الذي جازينا به نوحاً لأنه كان محسناً في أقواله و أفعاله ، وكان من عبادنا الذين بلغوا درجة الكمال في إيمانهم وإحسانهم ، وقد أنعمنا عليه أيضاً بأننا أغرقنا أعداءه الذين آذوه وأعرضوا عند دعوته ، فاعتبروا يا أولي الأبصار .

تلك هي قصة نوح كما وردت في السورة الكريمة و هي قصة مختصرة في آيات ، وقد سبقها قول الله تعالى خطاباً للكافرين من أمة محمد " ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين إلا عباد الله المخلصين " ثم جاءت قصة نوح بعد ذلك لتكون دليلاً على نجاة أهل الإيمان ، وهلاك أهل الكفر والطغيان .

و قد تميزت القصة هنا بأن الله وصف نوحاً ﷺ بأنه من عباده المؤمنين ، وأن ذكره في العالمين ذكراً حسناً ، وأيضاً : بأن الله حكم بالبقاء لذرية نوح ﷺ و بالطبع لم يوجد هذا في السور التي وردت فيها هذه القصة ."

يقول الأستاذ سعيد حوى (إن المقطع الأول من سورة الصافات ينقسم إلى مجموعتين ، الأولى للتقرير ، والثانية للتمثيل ، وقد جعل الله بين ذلك جسراً انتقل به السياق من التقرير إلى التمثيل وهو قوله تعالى " ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين

ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين إلا عباد الله المخلصين " ثم بدأ التمثيل بقوله تعالى " و لقد نادانا نوح "

٢- في التمثيل بقصة نوح ﷺ في سياق السورة توضيح لنجاة عباد الله المخلصين , من عذاب الدنيا , و توضيح لقيمة الإيمان , ونموذج على إرسال الله الرسل للإنذار , ونموذج على أن هؤلاء الرسل هم المثل الأعلى للأخلاق الربانية من إحسان و إيمان .

٣- في قوله تعالى " عن نوح ﷺ إنه من عبادنا المؤمنين " إشارة إلى كون نوح ﷺ من المؤمنين , ومن ثم فإن قصة نوح خدمت سياق السورة من عدة نواح : أولاً : في موضوع التوحيد , ثانياً : في موضوع بعثة الرسل جميعاً بالتوحيد , ثالثاً : في موضوع إنجاء الله المؤمنين من العذاب , رابعاً : في إبراز قيمة الإيمان في موازين الله عز وجل) [١] .

ومما سبق يتبين لنا أن القصة ناسبت السياق الذي وردت فيه و تلاءمت مع الإطار العام للسورة و لا يوجد فيما ذكر فيها تكرار لما ذكر في السور السابقة .

السورة التاسعة : سورة القمر : وهي الرابعة والخمسون في ترتيب المصحف .

وفي السورة الكريمة اهتمت بالحديث عن أهوال يوم القيامة ، وعن تعنت المشركين وعنادهم ، وعن سنن الله تعالي في خلقه التي من أبرز مظاهرها نصر المؤمنين وخذلان الكافرين .

١ - ينظر : الأساس في التفسير ٨ / ٤٧٠٩ و ما بعدها .

وقد بدأت القصة في السورة الكريمة من الآية التاسعة إلي نهاية الآية السابعة عشرة , وفيها يقول الله تعالي : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ، فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ، وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ، وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ، وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾

فالآيات تبدأ حديثها عن نوح علية السلام بأن قومه كذبوه كما كذب كفار مكة محمدا , فقد كذب قوم نوح نبيهم تكذيبا عقب تكذيب ولم يكتفوا بذلك بل وصفوه بالجنون وهددوه بالقتل , فدعا عليهم قائلا :- ربي غلبني قومي ولم يسمعوا كلامي , واستحكم اليأس من إجابتهم لي , فانتقم لي منهم بعذاب تبعثه عليهم فاني ضعيف عن مقاومتهم , فانتصر أنت لدينك فاستجاب الله لدعاءه ففتح السماء بماء ينصب علي الأرض بقوه وبكثرة وتتابع , وجعل الأرض كلها كأنها عيون تتفجر , فاجتمع الماء النازل من السماء مع الماء المتفجر من الأرض علي أمر قد قدرة الله تعالي وقضاه أزلا وهو هلاك قوم نوح بالطوفان . وحملنا نوحا ومن معه من المؤمنين ... سفينة ذات ألواح ودسر من الخشب ومسامير يشد بها هذا الخشب ويربط ... السفينة تجري بمرأى منا وتحت رعايتنا وقدرتنا وما فعلنا ذلك إلا جزاء لكفر قوم نوح بالله , ولقد تركنا فعلتنا هذه بقوم نوح وإهلاكنا لهم علامة لمن بعدهم وعظة وعبرة لمن يعتبر ويتعظ , وأبقينا سفينته كذلك بعد إهلاك قومه عبرة لمن يشاهدها , فكيف كان عذابي ونذر ولقد جعلنا هذا القرآن سهلا للحفظ وللتذكر لمن أراد فهل من معتبر .

تلك هي قصة نوح مع قومه كما وردت في السورة الكريمة وهي قصة مختصرة مسوقة تحذيرا وإنذارا لقوم النبي ﷺ أن يدركهم العذاب إن استمروا علي تكذيب رسولهم مثل الذي أدرك قوم نوح .

وقد ذكر في القصة هنا عدة أمور لم تذكر من قبل وهي : -

١ - أن قوم نوح اتهموه بالجنون ولم يذكر ذلك صراحة قبل ذلك .

٢ - امتثال السماء والأرض لأمر الله في إرسال الماء ليتكون من ذلك طوفان هائل لا يمكن بأي حال أن يقاوم وما ذكر في سوره هود فكان امتثال السماء والأرض لأمر الله بعد أن أتم الماء مهمته .

٣ - أن السفينة التي حملت نوحا ومن أمن معه كانت مكونة من ألواح ودسر .

وقد تميزت هنا أيضا بأمرين :-

أولهما : أن أهل مكة كقوم نوح كل منهما قد كذب رسولا من رسل الله وليست اللاحقة بأفضل من السابقة لأن القضية واحدة تكذيب الأمة لرسولها .

ثانيهما : تيسير الله تعالي القران المتضمن لهذا القصص ، ليكون ذكرا وتلاوة وعبادة , وليكون القصص الذي فيه آية لمن أراد أن يتعظ إذا سمع سير السابقين .

يقول الأستاذ سعيد حوى رحمه الله (ختم القصة بقوله تعالي) " ولقد يسرنا القران للذكر فهل من مدكر " يفيد أن تكذيب القران كتكذيب رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم , ويستحق المكذبون به ما استحق أولئك من العذاب , يؤيد هذا

المعنى مجيء قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ، حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾

فإذا صح هذا الاتجاه فإن مجيء قوله تعالى " ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر " بعد كل قصة من قصص السابقين في السورة – ما عدا القصة الأخيرة – ويفيد أن تذكروا ولا تكذبوا فيصيبكم ما أصابهم ، فالحجة قائمة عليكم ، والقرآن ميسر لكم لتتذكروا به ، فلا تعرضوا عنه ، ولا تكذبوه ، واتعظوا بمواعظه ، والتزموا أمره ونهيه .

٢– فيما قصه الله عز وجل علينا من شأن قوم نوح نموذج علي تكذيب الكافرين لرسلهم ، ونموذج علي عدم انتفاعهم بالإنذار ، ونموذج علي نصرة الله رسله ، ونموذج علي عقوبة الله في الدنيا لمن كذب رسله وفي ذلك موعظة لأهل الإيمان ، وتسلية لرسول الله ودروس للخلق جميعا) [١] .

ويذكر الأستاذ عبد الكريم الخطيب في تفسيره مناسبة هذه القصة للسياق الذي وردت فيه فيقول (إن الآيات السابقة عرضت موقف المشركين من النبي صلوات الله و سلامه عليه وأنهم إذا أراد آية واجهوها بالبهت والتكذيب . وقالوا إنها من واردات السحر . وقد انتهي هذا العرض بدعوة النبي الكريم أن يدع هؤلاء المعاندين وشأنهم فإنهم في هذا هم الخاسرون ، حيث يوردون أنفسهم موارد الهلاك يوم القيامة .الذي يكذبون به .) وفي هذه الآيات عرض لأحوال جماعة من المكذبين المعاندين في الأمم السابقة جاءتهم رسل الله بالبينات فبهتوهم وكذبوهم و تهددوهم بالمساءة و الأذى . فكان أن أخذهم الله بالبلاء في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة .

١– ينظر : الأساس في التفسير ١٠ / ٥٦٠٩ و ما بعدها .

وفي هذا التهديد للمشركين و أنهم سيسلكون في سلك الذين كذبوا رسل الله من قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط و فرعون) [1] .

ومما سبق يتبين لنا أن القصة ناسبت السياق الذي وردت فيه و تلاءمت مع الإطار العام للسورة الكريمة ولا يوجد فيما ذكر فيها تكرار لما ذكر في السور السابقة .

السورة العاشرة : سورة نوح عليه السلام : وهي السورة الحادية و السبعون في ترتيب المصحف .

(وهذه السورة الكريمة من أولها إلي أخرها تقص علينا قصة نوح مع قومه , وتصف تجربة من تجارب الدعوة في الأرض , وتمثل دورة من دورات العلاج الدائم الثابت المتكرر للبشرية , وشوطا من أشواط المعركة الخالدة بين الخير والشر , والهدي والضلال , والحق والباطل .

هذه التجربة تكشف عن صورة من صور البشرية العنيدة , الضالة الذاهبة وراء القيادات المضللة , المستكبرة عن الحق المعرضة عن دلائل الهدى وموجبات الإيمان , المعروضة أمامها في الأنفس والأفاق , المرموقة في كتاب الكون المفتوح , وكتاب النفس المكنون .

وهي في الوقت ذاته تكشف عن صورة من صور الرحمة الإلهية تتجلى في رعاية الله لهذا الكائن الإنساني , وعنايته بأن يهتدي , تتجلي هذه العناية في إرسال الرسل تترى إلي هذه البشرية العنيدة الضالة الذاهبة وراء القيادات المضللة المستكبرة عن الحق والهدي .

١- ينظر : التفسير القرآني للقرآن ٧ / ٦٤٢ .

ثم هي بعد هذا وذلك تعرض صورة من صور الجهد المضني ، والعناء المرهق ، والصبر الجميل ، والإصرار الكريم من جانب الرسل – صلوات الله عليهم لهداية هذه البشرية الضالة العنيدة العصية الجامحة .

وهم لا مصلحة لهم في القضية ولا أجر يتقاضونه من المهتدين علي الهداية ولا مكافأة ولا جعل يحصلونه علي حصول الإيمان .

ومن خلال عرض هذه الحلقة من حلقات الدعوة الإلهية علي البشرية تتجلي حقيقة وحدة العقبة وثبات أصولها ، وتأصل جذورها كما يتجلى ارتباطها بالكون وبإرادة الله وقدره ، وأحداث الحياة الواقعة وفق قدر الله)[1] .

قال تعالي بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ، أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ، يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ، قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ، ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ، ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ، فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ، وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ، مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ، أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ، وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ، وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ، لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ، قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ، وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ، وَقَالُوا لَا

١ – ينظر : الظلال ٦/٣٧٠٦ بتصرف .

تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ، وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ، مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ، وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ، إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ، رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾

فالسورة الكريمة تبدأ حديثها عن نوح عليه السلام بأن الله أرسله إلى قومه ليحذرهم عاقبة الكفر بالله , و ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم , فحمل نوح رسالة ربه إلى قومه و خاطبهم قائلاً لهم :

يا أهلي وعشيرتي إني لكم رسول أمين ونذير مبين , آمركم أن تخلصوا لله العبادة , وأن تتقوه في كل أقوالكم وأفعالكم , وأن تطيعوني في كل ما آمركم به وأنهاكم عنه , فإنكم إن فعلتم ذلك غفر الله لكم بعض ذنوبكم التي اقترفتموها قبل إيمانكم , وأمد في أعماركم إلى وقت معين عنده , فإن الوقت الذي حدده الله – عز و جل – لانتهاء أعماركم لا يؤخر عن موعده , لو كنتم تعلمون فأصر القوم على كفرهم وعنادهم لنبيهم , فتوجه نوح إلى ربه قائلاً : رب إني دعوت قومي إلى عبادتك وتوحيدك ليلاً ونهاراً , فلم أر منهم إلا عناداً واستكباراً , وكلما دعوتهم إلى الإيمان بك لتغفر لهم , سدوا مسامعهم لئلا يسمعوا كلامي , وتغطوا بثيابهم لئلا يبصروني , واستمروا على ما هم فيه من الشرك و الكفر العظيم الفظيع و استكبروا استكباراً .

ومع عنادهم و استكبارهم فإني لم أمتنع عن دعوتهم فقد دعوتهم جهاراً وإسراراً , قلت لهم : استغفروا ربكم , توبوا إليه , إنه يقبل التوبة عن عباده , ويعفو عن السيئات إنه كان كثير الغفران لمن تاب إليه وأناب , فإنكم إن فعلتم

ذلك ، أرسل عليكم بفضله ورحمته الأمطار الغزيرة ، التي تنتفعون بها في مختلف شئون حياتكم ، وأمدكم بالأموال الناقصة ، والذرية الصالحة ، وجعل لكم الجنات والبساتين ، تجري فيها العيون و الأنهار .

وقلت لهم أيضاً : ما لكم لا تخشون الله و قدرته على كل شيء ؟ وما لكم لا ترهبون سطوته فتؤمنوا به وتصدقوا برسله ؟ وهو القادر على كل شيء ، فهو الذي خلقكم في أطوار مختلفة وفي أحوال تكاد تكون متباينة ، وهو الذي خلق السموات السبع متطابقة بعضا فوق بعض ، وجعل في إحداهن نوراً ، وجعل الشمس في أخرى سراجاً و هاجاً .

وهو الذي أوجد و أنشأ أباكم آدم من الأرض إنشاء ، وجعلكم فروعا عنه ، ثم يعيدكم إلى هذه الأرض بعد موتكم لتكون قبوراً لكم ، ثم يخرجكم منها البحث والحساب و الجزاء .

وهو الذي جعل لكم الأرض ممهدة للعيش ، ميسرة سهلة للانتقال ، لتتخذوا منها لأنفسكم طرقاً توصلكم إلى أغراضكم ، وعلى الرغم من هذه الطرق المختلفة في الدعوة ، وتلك البراهين الواضحة نبذ قوم نوح دعوته ، وعصوه وخالفوه وكذبوه ، فاتجه إلى ربه يشكو عصيان قومه ، مبيناً سبب هذا العصيان فقال : رب إن قومي قد عصوني و خالفوا أمري ، واتبعوا رؤساءهم الذين حملوهم على الكفر وأشاروا عليهم به ، لأنهم أصحاب مال وأولاد فاغتروا بهم ، وإن هؤلاء الرؤساء قد مكروا بي وبأتباعي مكراً عظيماً ، فقد سولوا لهم قتلي وإنزال الأذى بي ، وسولوا لهم أنهم على الحق وأنا ومن معي على الباطل ، ولذلك أمروهم بالعكوف على عبادة الأصنام وترك عبادة الواحد القهار ، وقد أضلوا بمكرهم هذا خلقاً كثيراً فلا تزدهم يا رب إلا ضلالاً .

ويا رب لا تترك على الأرض من هؤلاء الكافرين شخصاً واحداً منهم يسكن داراً أو يدور ويتحرك فيها لأنك إن تتركهم بدون إهلاك يضلوا عبادك عن كل خير ، وهم فوق ذلك لن يلدوا إلا من هو مثلهم في الفجور والكفران .

ويا رب أسألك أن تغفر لي ذنوبي وأن تغفر لوالدي أيضاً واغفر يا إلهي أيضاً لكل من دخل بيتي وهو متصف بصفة الإيمان واغفر للمؤمنين والمؤمنات من كل أمة وفي كل زمن .

ولا تزد الظالمين إلا هلاكاً و خساراً و دماراً ، فاستجاب الله لدعاء نوح عليه السلام وحقق رجاءه فأغرق الكافرين بالطوفان فماتوا ، فأدخلوا ناراً ليأخذوا عذاب الآخرة بعد عذاب الدنيا ، ومع هذا كله لم يجدوا لهم أحداً يدفع عنهم شيئاً من هذا العذاب الأليم ، وذلك بسبب خطاياهم التي أعظمها الكفر و إيذاء نوح عليه السلام ، وقد أنجى الله المؤمنين بسبب إيمانهم [1] .

تلك هي قصة نوح عليه السلام كما وردت في السورة المسماه باسمه ، قصها الله على كفار مكة ، و على جميع الناس ، ليعتبروا و ليتعظوا .

(فهي مثال حي ناطق بسنة الصراع بين الحق و الباطل في كل زمان و مكان ، و ناطق بأن فساد العقلية البشرية ليس من أصل الطبيعة و إنما هو من خداع المستكبرين الماكرين ، و ناطق بأن الحق مهما طال ركوده لابد أن يعلو صوته و ينتشر في العالم ضوؤه ، ويعم الكون خيره) [2] .

وقد تميزت القصة في هذه السورة بما يلي :

---

١ - ينظر : الوسيط في تفسير القرآن ١٥ / ١١٠ و ما بعدها بتصرف و اختصار

٢- ينظر : إلى القرآن الكريم الشيخ شلتوت ص ١٥٥ .

١- ببيان أن نوحاً عليه السلام لم يكن ليتوقف عن تبليغ الدعوة ساعة من ليل أو نهار ، في السر ، وفي العلن .

٢- ببيان ما في دعوته من خير روحي و مادي يعود على من آمن بها .

وقد أرشدت الآيات أن من آمن بدعوة نوح عليه السلام ينتفع بها في نواح ثلاث .

ناحية الروح ، تمحو عنه ما اقترفه من ذنوب و خطايا " يغفر لكم من ذنوبكم .

ناحية الأجل ، حين يستوفي أجله الطبيعي دون أن يعاجله العذاب المقدر عليه إذا استمر في الكفر و المعاصي : و يؤخركم إلى أجل مسمى .

ناحية الرزق ، حين يفتّح له أبوابه " يرسل السماء عليكم مدراراً و يمددكم بأموال و بنين و يجعل لكم جنات و يجعل لكم أنهاراً "

٣- بيان كيفية عناد قوم نوح له ، و إعراضهم عن دعوته " و إني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذنهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً "

٤- بيان دعوتهم إلى الإيمان بالله عن طريق التأمل في نعم الله عليهم في الأنفس و الآفاق

﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ، أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ، وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ، وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ، لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾

٥- ببيان ذكر أسماء الآلهة التي عبدها قوم نوح من دون الله " وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث و يعوق و نسرا "

٦- ببيان الحكمة من إهلاك الكافرين من قوم نوح " إنك إن تذرهم يضلوا عبادك و لا يلدوا إلا فاجرا كفارا "

٧- ببيان أن نوحا ﷺ سأل ربه المغفرة له و لأهل الإيمان من أمته " رب اغفر لي و لوالدي و لمن دخل بيتي مؤمنا و للمؤمنين و المؤمنات "

٨- ببيان العاقبة السيئة التي صار إليها القوم جزاء إعراضهم عن سماع الحق [١] .

وهذه العاقبة وإن كانت ذكرت في أكثر من سورة إلا أن هذه السورة الكريمة جاء فيها زيادة على ما سبق العذاب بالنار .

" مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا "

وبهذا يكون ما ذكر في هذه السورة عن نوح ﷺ ليس فيه تكرار لما ذكر سابقاً .

سورتان

وبعد عرض قصة نوح ﷺ كما ذكرت في سور القرآن الكريم . بقي لي في عرض القصة سورتان :

الأولى : سورة يس : وهي السورة السادسة والثلاثون في ترتيب المصحف

---

١ - ينظر : إلى القرآن الكريم الشيخ شلتوت ص ١٥٣ و ما بعدها بتصرف .

وفيها إشارة إلى قصة نوح عليه السلام في الآية الحادية والأربعين منها وفيها يقول الحق تبارك وتعالى " و آية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون "

وذلك بناء على أن المراد بالذرية في الآية الأصول – الآباء – والفلك المشحون هو سفينة نوح عليه السلام .

أما إذا أريد بالذرية الفروع – الأبناء – والفلك المشحون جنس السفن فالآية لا علاقة لها بقصته عليه السلام .

يقول د / محمد سيد طنطاوي (و للمفسرين في تفسير هذه الآية قولان :

الأول : أن الضمير في " لهم " يعود إلى أهل مكة , و المراد بذريتهم أولادهم صغارا و كبارا , و المراد بالفلك المشحون جنس السفن .

فيكون المعنى : ومن العلامات الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا , أننا حملنا بفضلنا ورحمتنا أولادهم صغارا وكبارا في السفن المملوءة بما ينفعهم دون أن يصيبهم أذى , وسخرنا لهم هذه السفن لينتقلوا فيها من مكان إلى آخر .

الثاني : أن الضمير في " لهم " يعود إلى الناس عامة , والمراد بذريتهم آباؤهم الأقدمون والمراد بالفلك المشحون سفينة نوح عليه السلام التي أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم

فيكون المعنى : وعلامة و دليل واضح للناس جميعاً على قدرتنا , أننا حملنا بفضلنا ورحمتنا آباءهم الأقدمين الذين آمنوا بنوح عليه السلام في السفينة التي أمرناه بصنعها , والتي كانت مليئة ومشحونة , بما ينتفعون به في حياتهم) (١) .

١- ينظر : التفسير الوسيط ١٢ / ٣٥ بتصرف , و التفسير المنير ٢٣ / ١٨

وللإمام الرازي رحمه الله كلام طيب في تفسير الآية فيقول رحمه الله :

(قال المفسرون الذرية هم الأباء أي حملنا آباءكم في الفلك ، وهذا قول بعضهم .

وأما الأكثرون فعلى أن الذرية لا تطلق إلا على الولد و على هذا فلابد من بيان المعنى فيقول : الفلك إما أن يكون المراد الفلك المعين الذي كان لنوح ، وإمـا أن يكون الجنس كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ [1] . قال تعالى: ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ [2]. وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ ﴾ [3] . إلى غير ذلك من استعمال لام التعريف في الفلك لبيان الجنس .

فإن كان المراد حملنا أولادكم إلى يوم القيامة في ذلك الفلك و لولا ذلك لما بقي للآدمي نسل ولا عقب وعلى هذا فقوله " حملنا ذريتهم " بدل قوله حملناهم إشارة إلى كمال النعمة أي لم تكن النعمة مقتصرة عليكم بل متعدية إلى أعقابكم إلى يوم القيامة هذا ما قاله الزمخشري .

ويحتمل عندي : أن يقال على هذا أنه تعالى لما خص الذرية بالذكر ، لأن الموجودين كانوا كفاراً لا فائدة في وجودهم فقال " حملنا ذريتهم " أي لم يكن الحمل حملا لهم و إنما كان حملا لما في أصلابهم من المؤمنين .

١- سورة الزخرف آية رقم ١٢ .
٢- سورة فاطر آية رقم ١٢ .
٣- سورة العنكبوت آية رقم ٦٥ .

الثاني : هو أن المراد بالذرية الجنس ومعناه حملنا أجناسهم وذلك لأن ولد الحيوان من جنسه ونوعه , والذرية تطلق على الجنس ولهذا يطلق على النساء ذراري .

الثالث : هو أن الضمير في قوله " وآية لهم "عائد على العباد حيث قال " يا حسرة على العباد " (١) . وقال بعد ذلك " و آية لهم الأرض " (٢) . وقال " وآية لهم الليل " (٣) . وقال " وآية لهم أنا حملنا ذريتهم " (٤) .

إذا علم هذا فكأنه تعالى قال و آية للعباد أنا حملنا ذريات العباد و لا يلزم أن يكون المراد بالضمير في الموضعين أشخاصاً معينين .

كما قال تعالى " ولا تقتلوا أنفسكم " (٥) . ويريد بعضكم بعضا أي آية لكل بعض منهم أنا حملنا ذرية كل بعض منهم أو ذرية بعض منهم .

وأما إذا قلنا إن المراد جنس الفلك فهو أظهر لأن سفينة نوح لم تكن بحضرتهم و لم يعلموا من حمل فيها فأما جنس الفلك فإنه ظاهر لكل أحد و قوله تعالى في سفينة نوح " وجعلناها آية للعالمين " (٦) . أي بوجود جنسها ومثلها ويؤيده قوله تعالى " ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور " (٧) .

١- سورة يس آية رقم ٣٠ .
٢- سورة يس آية رقم ٣٣ .
٣- سورة يس آية رقم ٣٧ .
٤- سورة يس آية رقم ٤١ .
٥- سورة النساء آية رقم ٢٩ .
٦- سورة العنكبوت آية رقم ١٥ .
٧- سورة لقمان آية رقم ٣١ .

فنقول : قوله تعالى " حملنا ذريتهم " أي ذريات العباد , ولم يقل حملناهم لأن سكون الأرض عام لكل أحد يسكنها فقال : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ ﴾ إلى أن قال " فمنه يأكلون " لأن الأكل عام , وأما الحمل في السفينة فمن الناس من لا يركبها في عمره ولا يحمل فيها و لكن ذرية العباد لابد لهم من ذلك فإن فيهم من يحتاج إليها فيحمل فيها) [1] .

السورة الثانية : سورة الحاقة : و هي السورة التاسعة و الستون في ترتيب المصحف .

وفيها يشير الحق سبحانه و تعالى إلى قصة نوح عليه السلام من جانب الامتنان على البشر بحمل أصولهم في سفينة نوح عليه السلام عندما عم الهلاك الأرض بمن فيها و ما فيها يقول الله تعالى في الآية الحادية عشرة والثانية عشرة (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية)

فالآيتان الكريمتان يتحدثان عن جانب من نعم الله على عباده – وهي كثيرة – وخاصة المشركون من أهل مكة بأنه لما تجاوز الماء حده وارتفع و جاء الطوفان في زمن نوح عليه السلام حمل آباءهم المؤمنين وهم في أصلابهم في السفينة التي تجري في الماء لينجوا من الغرق , وليجعل نجاة المؤمنين وإغراق الكافرين عبرة وعظة يستدلون بها على عظيم قدرة الله وبديع صنعه وشدة انتقامه ولتعيها وتحفظها بعد سماعها أذن حافظة لما سمعت .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب في تفسيره (قوله تعالى " إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية " مناسبة هذه الآية لما قبلها : هي أن الآيات السابقة ذكرت مصارع القوم الظالمين , وقطع دابرهم جميعا بحيث لم يترك الخراب من

١- ينظر : تفسير الرازي ١٣ / ٦٩ و ما بعدها بتصرف

دار ولا ديار ، ومع هذا فإن هؤلاء المشركين من قريش ، وما زالوا أحياء يعيشون في الناس لم يأخذهم الله سبحانه بما أخذ به الظالمين من قبل وهؤلاء المشركون هم بقية من ذرية القوم الذين نجوا من الهلاك ، وهم الذين آمنوا بالله من بين المكذبين والضالين ، وإنه لجدير بهؤلاء المشركين أن يأخذوا طريق النجاة من عذاب الله كما أخذه آباؤهم الأولون من المؤمنين الذين نجوا من عذاب الله .

هذا وإذا كانت الآية تشير من قريب إلى أظهر صورة من صور نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين وهو ما كان من نوح ، وقومه وسفينته ، وطوفانه حين غرق الكافرين في الطوفان ، ونجا نوح ومن معه من المؤمنين بالسفينة ، إذا كانت الآية تشير من قريب إلى هذا فإنها تشير من بعيد إلى نجاة الذين آمنوا بالله من كل بلاء ساقه الله إلى الكافرين المكذبين لرسل الله في كل زمان و مكان .

وقوله تعالى : " ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ أي لنجعل هذه الإشارة إلى نجاتكم في أصلاب آباءكم الأولين الذين آمنوا و نجوا من الطوفان لتجعل هذه الإشارة تذكره لكم أيها المشركون تذكرون بها أنكم من أصلاب آباء كانوا مؤمنين فكونوا مثلهم إذا كنتم حقاً تحرصون على التمسك بما كان عليه آباؤكم إذ تقولون ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [١] . فإن في آبائكم مهتدين وضالين فتخيروا من ترونه أهلا للإتباع من هؤلاء الآباء ، وهذه التذكرة لا يعيها ولا تعقلها و لا تحتفظ بها و تحفظها إلا أذن عاقلة بينها وبين العقل صلة وثيقة ، أما الأذن التي لا تسمع و لا تورد ما تسمع على العقل فهي إذن حيوانية لا ينال منها صاحبها خيراً أبداً) [٢] .

١- سورة المائدة آية رقم ١٠٤ .
٢- ينظر : التفسير القرآني للقرآن ٨ / ١١٣٠ .

الفصل الثاني

الأغراض الدينية المستفادة من تكرار اسم نبي الله نوح في القرآن

المتأمل في القرآن الكريم يجد أن الحق سبحانه وتعالي ذكر اسم نبي الله نوح عليه السلام مجردا من غير ذكر لأخباره وأخبار قومه بالتفصيل في اثنين وعشرون موضعا ، تارة يضاف الاسم الكريم الي شيء قبله، وتارة لا يضاف ،وفي كل موضع من هذه المواضع كان الاسم مذكورا لتحقيق غرض ديني لا يوجد في غيره من المواضع الأخرى ، هذه حقيقة لا مراء فيها .

وسوف تظهر هذه الحقيقة بوضوح بعد عرض هذه المواضع ، وذكر ما يؤيدها من أقوال المفسرين ملتزمين في هذا العرض بترتيب المصحف لا بترتيب النزول .

الموضع الأول : في سورة آل عمران

وهو قوله تعالي " إن الله اصطفي آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران علي العالمين " (١) .

الغرض : بيان أن نوحاً عليه السلام من الصفوة المختارة من البشر .

ففي هذه الآية الكريمة يذكر الحق تبارك و تعالى اسم نبي الله نوح عليه السلام ليبين لنا أنه من ضمن الذين فضلهم الله على العالمين قال صاحب المنار (لما بين سبحانه وتعالى أن محبته منوطه بإتباع الرسول ، فمن اتبعه كان صادقاً في دعوى حبه لله ، وجديراً بأن يكون محبوباً منه جل وعلاه ، أتبع ذلك ذكر من أحبهم واصطفاهم ، وجعل منهم الرسل الذين يبينون طريق محبته ، وهي الإيمان

١- آية رقم ٣٣ .

به مع طاعته . فقال " إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين " أي اختارهم وجعلهم صفوة العالمين وخيارهم بجعل النبوة والرسالة فيهم . فآدم أول البشر ارتقاء إلى هذه المرتبة , فإنه بعد ما تنقل في الأطوار إلى مرتبة التوبة والإنابة اصطفاه تعالى و اجتباه كما قال في سورة طه " ثم اجتباه ربه فتاب عليه و هدى "[١] .

فكان هادياً مهتدياً مهدياً , و كان في ذريته من النبيين و المرسلين من شاء الله تعالى , وأما نوح عليه السلام فقد حدث على عهده ذلك الطوفان العظيم , فانقرض من السلائل البشرية من انقراض و نجا هو وأهله في الفلك , فكان بذلك أبا ثانياً للجم الغفير من البشر , وكان هو نبياً مرسلاً و جاء من ذريته كثير من النبيين والمرسلين , ثم تفرقت ذريته و انتشرت , وفشت فيهم الوثنية حتى ظهر فيهم إبراهيم عليه السلام نبياً مرسلاً وخليلاً مصطفى , وتتابع النبيون والمرسلون من آله وذريته , وكان أرفعهم قدراً وأنبههم ذكراً آل عمران , قبل أن تختم النبوة بولد إسماعيل عليهم الصلاة و السلام)[٢] .

وقال الأستاذ عبد الكريم الخطيب " رحمه الله " (من تصريف الله في ملكه , أنه يؤتي الملك من يشاء , وينزع الملك ممن يشاء , ويعز من يشاء , ويذل من يشاء , وقد اقتضت حكمته سبحانه أن يصطفي من يشاء من عباده لتلقى هباته وعطاياه وإن من عباده الذين اصطفاهم لأفضاله ومنحه آدم , ونوحاً , وآل إبراهيم , وآل عمران ، فآدم , هو أبو البشر و قد اصطفاه الله فجعله خليفته في الأرض .

١ - آية رقم ١٢٢ .

٢ - ينظر : تفسير المنار ٣ / ٢٣٧ .

ونوح ، هو الأب الثاني للبشرية بعد أن هلك البشر بالطوفان ، وإبراهيم هو الفرع أبو الأنبياء ، وآله هم هؤلاء الأنبياء من ذريته .

وعمران هو الفرع الزاكي من شجرة إبراهيم ، ومن ذريته موسي وهارون وزكريا ، ويحيي وعيسي عليهم السلام .

وفي قوله تعالي " وآل إبراهيم وآل عمران " إشارة إلي امتداد الاصطفاء من الأصول إلي الفروع ولهذا قال تعالي (إن الله اصطفي آدم ونوحا) لا آل آدم ولا آل نوح لان ذلك يشمل الإنسانية كلها من حيث كان آدم ونوح أبوي البشرية كلها ، فلا يكون والأمر كذلك مكان للاصطفاء من بين الذرية المصطفاة كلها .

وفي قوله تعالي (ذرية بعضها من بعض) أي أن هؤلاء المصطفين من آل إبراهيم ، وآل عمران هم وآباؤهم من معدن واحد ، خلص من شوائب النساء والكدر فجاء الفرع مشابها للأصل ، طيبا وكرما ، وكمالا وحسنا) [1] .

الموضع الثاني : في سورة النساء

وهو قوله تعالي : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ [2] .

الغرض : بين اتحاد الوحي للرسل

ففي هذه الآية الكريمة يذكر الحق سبحانه وتعالي اسم نبي الله نوح في معرض الحديث عن اتحاد الوحي الذي جاء به جميع الرسل من أولهم إلي آخرهم

١ – ينظر : التفسير القرآني لعبد الكريم الخطيب ١/٤٣٣/٤٣٤ .
٢ – آية رقم ١٦٣ .

فلا مجال لشك الشاكين من أهل الكتاب في رسالة محمد ﷺ وهم يعلمون من أمر الوحي مالا يعلمه غيرهم .

يقول صاحب الظلال رحمة الله (ويستطرد السياق في مواجهة أهل الكتاب واليهود منهم في هذا الموضع خاصة – وموقفهم من رسالة محمد ﷺ وزعمهم أن الله لم يرسله و تفريقهم بين الرسل , وتعنتهم و هم يطلبون أمارة على رسالته : كتاباً ينزله عليهم من السماء فيقرر أن الوحي للرسول ليس بدعا , وليس غريباً , فهو سنة الله في إرسال الرسل جميعاً من عهد نوح إلى عهد محمد وكلهم رسل أرسلوا للتبشير والإنذار , اقتضت هذا رحمة الله بعباده وأخذه الحجة عليهم , وإنذاره لهم قبل يوم الحساب , وكلهم جاءوا بوحي واحد , لهدف واحد , فالتفرقة بينهم تعنت لا يستند إلى دليل , وإذا أنكروا هم وتعنتوا فإن الله يشهد , وكفى به شاهداً والملائكة يشهدون ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ، وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ، رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

فهو إذن موكب واحد يتراءى على طريق التاريخ البشري الموصول , ورسالة واحدة بهدى واحد للإنذار و التبشير .

موكب واحد يضم هذه الصفوة المختارة من بين البشر نوح , و إبراهيم , وإسماعيل , وإسحاق , ويعقوب , والأسباط وعيسى , وأيوب , ويونس , وهارون , وسليمان , وداود , وموسى , وغيرهم ممن قصهم الله على نبيه ﷺ في القرآن , وممن لم يقصهم عليه , موكب من شتى الأقوام و الأجناس , و شتى البقاع , و الأرضين , وفي شتى الآونة و الأزمات , لا يفرقهم نسب ولا جنس , ولا أرض

و لا وطن , ولا زمن ولا بيئة , كلهم آت من ذلك المصدر الكريم , وكلهم يحمل ذلك النور الهادي , وكلهم يؤدي الإنذار والتبشير , وكلهم يحاول أن يأخذ بزمام القافلة البشرية إلى ذلك النور , سواء منهم من جاء لعشيرة ومن جاء لقوم , ومن جاء لمدينة , ومن جاء لقطر , ثم من جاء للناس أجمعين , محمد رسول الله ﷺ خاتم النبيين ، كلهم تلقى الوحي من الله , فما جاء بشيء من عنده [١] .

ويقول الدكتور وهبه الزحيلي في تفسيره لهذه الآية (و تستمر الآيات في مناقشة أهل الكتاب وبيان ألوان عنادهم فهم كما سبق لا يؤمنون بكل الرسل , ويتطلبون أشياء صعبة من الرسل سواء من موسى أو من محمد عليهما السلام , وهنا تذكر الآيات في ختام محاجتهم أن الوحي جنس واحد لا يختلف بين الرسل , فلو صدقوا الإيمان بموسى أو غيره لآمنوا بمحمد , فلم يفرقون بين نبي و نبي , فالكلام متصل بقوله " يسألك أهل الكتاب " [٢] . فاعلم تعالى أن أمر محمد كأمر من تقدمه من الأنبياء) [٣] .

الموضع الثالث : في سورة الأنعام

وهو قوله تعالى : **﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾**

الغرض : بيان نعم الله على إبراهيم عليه السلام

---

١ – ينظر : الظلال ٢ / ٨٠٤ و ما بعدها .
٢ – سورة النساء آية رقم ١٥٣ .
٣ – ينظر : التفسير المنير ٦ / ٣٢ و ما بعدها

ففي هذه الآية الكريمة يذكر الحق سبحانه اسم نبي الله نوح عليه السلام في معرض الامتنان على إبراهيم عليه السلام بنعمة الهداية له و لأبنائه ولآبائه ، فهو والد الأبناء الأبرار ، وابن الآباء الأبرار .

قال الرازي – رحمة الله – (اعلم أنه تعالى لما حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه أظهر حجة الله تعالى في التوحيد و نصرها ، و ذب عنها عدد وجوه نعمة و إحسانه عليه .

فأولها : قوله " وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم " والمراد أنا نحن آتيناه تلك الحجة وهديناه إليها وأوقفنا عقله على حقيقتها .

وثانيها : أنه تعالى خصه بالرفعة و الاتصال إلى الدرجات العالية الرفيعة وهي قوله " نرفع درجات من نشاء " .

وثالثها : أنه جعله عزيزاً في الدنيا ، وذلك لأنه تعالى جعل أشرف الناس وهم الأنبياء و الرسل من نسله و من ذريته ، وأبقى هذه الكرامة في نسله إلى يوم القيامة ، لأن من أعظم أنواع السرور علم المرء بأنه يكون من عقبه الأنبياء والملوك .

والمقصود من هذه الآيات تعديد أنواع نعم الله على إبراهيم جزاء على قيامة بالذب عن دلائل التوحيد ، فإن قالوا : لم لم يذكر إسماعيل عليه السلام مع إسحاق بل أخر ذكره عنه بدرجات ؟ قلنا لأن المقصود بالذكر ههنا أنبياء بني إسرائيل وهم بأسرهم أولاد إسحاق و يعقوب أما إسماعيل فإنه ما خرج من صلبه أحد من الأنبياء إلا محمد ﷺ في هذا المقام ، لأنه تعالى أمر محمداً ﷺ أن يحتج على العرب في نفي الشرك بالله بأن إبراهيم لما ترك الشرك و أصر على التوحيد رزقه الله النعم العظيمة في الدين والدنيا ، ومن النعم العظيمة في الدنيا أن آتاه الله

أولاداً كانوا أنبياء و ملوكا ، فإذا كان المحتج بهذه الحجة هو محمد امتنع أن يذكر نفسه في هذا المعرض فلهذا أخر السبب لم يذكر إسماعيل مع إسحاق .

وأما قوله " ونوحاً هدينا من قبل " فالمراد أنه سبحانه جعل إبراهيم في أشرف الأنساب و ذلك لأنه رزقه أولاداً مثل إسحاق و يعقوب ، وجعل أنبياء بني إسرائيل من نسلهما ، وأخرجه من أصلاب آباء طاهرين مثل نوح ، وإدريس ، وشيث .

فالمقصود بيان كرامة إبراهيم عليه السلام بحب الأولاد وبحسب الآباء .

أما قوله " ومن ذريته داود و سليمان " فقيل المراد من ذريه نوح و يدل عليه وجوه :

الأول : أن نوحا أقرب المذكورين و عود الضمير إلى الأقرب واجب .

الثاني : أنه تعالى ذكر في جملتهم لوطاً وهو كان ابن أخ إبراهيم وما كان من ذريته ، بل من ذرية نوح عليه السلام ، وكان رسولاً في زمان إبراهيم .

الثالث : أن ولد الإنسان لا يقال إنه من ذريته ، فعلى هذا إسماعيل عليه السلام ما كان من ذرية إبراهيم بل هو من ذرية نوح عليه السلام .

الرابع : قيل أن يونس عليه السلام ما كان من ذرية إبراهيم عليه السلام وكان من ذرية نوح عليه السلام .

والقول الثاني : أن الضمير عائداً إلى إبراهيم عليه السلام والتقدير ومن ذرية إبراهيم داود وسليمان ، واحتج القائلون بهذا القول بأن إبراهيم هو المقصود

بالذكر في الآيات . وإنما ذكر من تعالى نوحا لأن كون إبراهيم ﷺ من أولاده ، أحد موجبات رفعة إبراهيم [1] .

وقال صاحب المنار رحمه الله في تفسيره للآية (بين الله تعالى في الآيات السابقة لهذه بعض ما رفع به من درجات إبراهيم عليه الصلاة و السلام ثم بين في هذه فضله و نعمة عليه في حسبه و نسبه . وأعلاها جعل الكتاب والحكم والنبوة في ذريته . فقال " ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا " أي ووهبنا لإبراهيم بآية من إسحاق نبياً من الصالحين ومن وراء إسحاق ولده يعقوب نبيا نجيبا منجيا للأنبياء و المرسلين ، وهدينا كلا منهما كما هدينا إبراهيم بما آتيناهما من النبوة و الحكمة وقوة الحجة ، وإنما ذكر إسحاق من ولدي إبراهيم دون إسماعيل لأنه هو الذي وهبه الله تعالي له بآية منه بعد كبر سنه ويأس امرأته سارة علي عقمها جزاء لإيمانه وإحسانه . وكمال إسلامه لربه وإخلاصه . بعد ابتلاءه بذبح ولده . واستسلامه لأمر ربه في الرؤيا من غير تأويل ولم يكن له ولد . سواء علي كبر سنه وقد ولد له من سرية شابة .ولذلك قال تعالى بعد ذكر قصة الذبح من سورة الصافات ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [2]

(ونوحا هدينا من قبل) أي وهدينا جده نوحا هديناه من قبل إبراهيم إلى مثل ما هدينا له إبراهيم وذريته من النبوة والحكمة وإرشاد الخلق وتلقين الحجة .

وأما قوله تعالي (ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسي وهارون وكذلك نجزي المحسنين – و زكريا ويحيي وعيسي وإلياس كل من الصالحين – وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا علي العالمين) .

---

١ – ينظر : تفسير الرازي ٧ / ٥٢ و ما بعدها .

٢ – آية رقم ١١٢ .

فهو عطف علي (ونوحا هدينا) أي وهدينا من ذريته داود وسليمان .... الخ .

وقد جزم ابن جرير شيخ المفسرين بان الضمير في ذريته لنوح وتابعه علي ذلك بعض المفسرين واحتجوا بأنه أقرب في الذكر , وبان لوطا ويونس ليسا من ذرية إبراهيم .

وزاد بعضهم أن ولد المرء لا يعد من ذريته , فلا يقال أن إسماعيل من ذرية إبراهيم , وهذا القول لا يصح لتصريح أهل اللغة بأن الذرية النسل مطلقا

وأخذ بعضهم من قوله تعالي (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون) [١] .

أن الذرية تطلق علي الأصول كما تطلق علي الفروع , وذلك بناء علي أن المراد بالفلك المشحون سفينة نوح .

وقال بعضهم أن الذرية هنا للفروع المقدرة في أصلاب الآباء ,والقول الأخر في الفلك المشحون , أنه سفينة التجارة التي كان المخاطبون يرسلون فيها أولادهم يتجرون .

وذهب سائر المفسرين : إلي أن الضمير عائدا إلي إبراهيم لأن الكلام في شأنه , وما أتاه الله تعالي من فضله , وإنما ذكر نوحا لأنه جده , فهو لبيان نعم الله عليه في أفضل أصوله تمهيدا لبيان نعمه عليه في الكثير من فروعه , ويزاد علي ذلك أن الله جعل الكتاب والنبوة في نسلهما معا منفردا ومجتمعا كما قال

---

١ – سورة يس آية رقم ٤١ .

تعالي في سورة الحديد " ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب " (1) .

وقال بعض هؤلاء : أن يونس من ذرية إبراهيم ،وأن لوطا ابن أخيه ، وقد هاجر معه فهو يدخل في بيته بطريق التغليب . ويعد منها بطريق التجوز الذي يسمون به العم أبا) (2) .

الموضع الرابع : في سورة الأعراف

وهو قوله تعالي (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم علي رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) .

الغرض : بيان أن هودا عليه السلام ذكر قومه بما حدث لقوم نوح .

ففي هذه الآية الكريمة يحكي الحق سبحانه وتعالي ما حدث من هودا عليه مع قومه وهو يذكرهم بما حدث لقوم نوح من الهلاك بعد تكذيب نبيهم رجاء أن يتعظوا فيثوبوا إلي رشدهم فيكونوا من المفلحين .

يقول الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره للآية (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم علي رجل منكم لينذركم . يقول : أو عجبتم أن أنزل الله وحيه بتذكيركم وعظتكم علي ما أنتم عليه مقيمون من الضلالة علي رجل منكم لينذركم بأس الله ويخوفكم عقابه ، " واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح " يقول فاتقوا الله في أنفسكم واذكروا ما حل بقوم نوح من العذاب إذ عصو رسولهم وكفروا بربهم فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم لما

---

1 - آية رقم 26 .

2 - ينظر : تفسير المنار 7/487 وما بعدها .

أهلكهم أبدلكم منهم فيها فاتقوا الله أن يحل بكم نظير ما حل بهم من العقوبة فيهلككم ويبدل منكم غيركم . سنته في قوم نوح قبلكم على معصيتكم اياه وكفركم به . وزادكم في الخلق بسطة . زاد في أجسامكم طولا وعظما على أجسام قوم نوح . وفي قوامكم على قوامهم نعمة منه بذلك عليكم فاذكروا نعمه وفضله الذي فضلكم به عليهم في أجسامكم وقوامكم واشكروا الله على تلك بإخلاص العبادة له وترك الإشراك به وهجر الأوثان والأنداد (لعلكم تفلحون).

يقول (كي تفلحوا فتدركوا الخلود والبقاء في النعيم في الآخرة وتنجحوا في طلباتكم عنده) [1] .

ويقول صاحب الظلال رحمه الله عند تفسيره للآية (ولا بد أن يكون القوم قد عجبوا كما عجب قوم نوح من قبل _ من هذا الاختيار . ومن تلك الرسالة . فإن هود يكرر لهم ما قاله نوح من قبل . كأنما كلاهما روح واحدة في شخصين) : "أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم" ؟

ثم يزيد عليه ما يمليه واقعهم . واقع استخلافهم في الأرض من بعد قوم نوح وإعطائهم قوة وضخامة بحكم نشأتهم الجبلية . وإعطائهم كذلك السلطان والسيطرة .

" و اذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح و زادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون " فلقد كان من حق هذا الاستخلاف . وهذه القوة والبسطة . أن تستوجب شكر النعمة . والحذر من البطر . واتقاء مصير الغابرين . وهم لم يأخذوا على الله عهداً : أن تتوقف سنته التي لا تتبدل . والتي تجري

١ – ينظر : تفسير الطبري ١٥٢/٥ .

وفق الناموس المرسوم ، بقدر معلوم ، وذكر النعم يوحي شكرها ، وشكر النعمة تتبعها المحافظة على أسبابها ، ومن ثم يكون الفلاح في الدنيا والآخرة .

ولكن الفطرة حين تنحرف لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر وهكذا أخذت الملأ العزة بالآثم واختصروا الجدل ، واستعجلوا العذاب استعجال من يستثقل النصح ويهزأ بالإنذار) [1] .

الموضع الخامس : في سورة التوبة :

وهو قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [2] .

الغرض : تذكير الكفار و المنافقين بما حدث للمكذبين من الأمم السابقة .

ففي هذه الآية الكريمة يخاطب الحق سبحانه و تعالى نبيه قائلاً له بأن هؤلاء الذين أعرضوا عن دعوتك ولم يؤمنوا بها ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم ممن ساروا في نفس الطريق قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم إبراهيم ، وأصحاب مدين ، والمؤتفكات ، هؤلاء أتتهم رسلهم بالبينات فأعرضوا وكذبوا فجاءهم العذاب ، وأولهم قوم نوح .

وقد ذكر الحق سبحانه و تعالى خبر هذه الطوائف الست لا ليعظ قوم هود كما فعل في سورة الأعراف وإنما ليعظ هنا أمة محمد ﷺ فالمجال من غير شك مختلف وإن اتفق في الشكل العام .

---

١ - ينظر : الظلال ٣ / ١٣١١ .
٢ - آية رقم ٧٠ .

يقول صاحب المنار رحمه الله عند تفسيره للآية (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات " هذا استفهام تقرير وتوبيخ لمن نزلت فيهم الآيات من الكفار والمنافقين في عهد النبي ﷺ يذكرهم بالأقوام الذين ضلوا من قبلهم و وصلت إليهم سيرتهم وكانوا أشد قوة – وأكثر أموالاً و أولاداً منهم .

وقد فصل نبئهم ومحل العبرة فيه بقوله " أتتهم رسلهم بالبينات " أي فأعرضوا عنها وعاندوا الرسل فأخذهم الله بالعذاب وهو الطوفان الذي أغرق قوم نوح , والريح العظيم التي أهلكت عاداً قوم هود , والصيحة التي أخذت ثمود , والعذاب الذي هلك به النمروز , الذي حاول إحراق إبراهيم , والخسف الذي نزل بقرى قوم لوط , وهم فيها .

" فما كان الله ليظلمهم " أي فما كان من سنة الله ولا من مقتضى عدله وحكمته أن يظلمهم بما حل بهم من العذاب وقد أنذرهم وأعذر إليهم ليجتنبوه " ولكن كانوا أنفسهم يظلمون " بجحودهم وعنادهم , وعدم مبالاتهم بإنذار رسلهم

والمراد من ضرب هذا المثل للكافرين برسالة محمد ﷺ من المجاهرين و المنافقين , أن سنة الله في عبادة واحدة لا ظلم فيها و لا محاباة , فلابد أن يحل بهم من العذاب ما حل بأمثالهم من أقوام الرسل إن لم يتوبوا كما قال في سورة القمر " أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبد)[1][2].

و يقول صاحب التفسير الواضح رحمه الله عند تفسيره للآية (ألم يأتهم نبأ السابقين من قوم نوح وعاد وثمود , وقوم إبراهيم وأصحاب مدين , وقوم لوط , هؤلاء أتتهم رسلهم بالبينات فأعرضوا و كذبوا , فجاءهم العذاب كالطوفان الذي

---

١ – آية رقم ٤٣ .

٢ – ينظر : تفسير المنار ١٠ / ٤٦٤ و ما بعدها .

أغرق قوم نوح . والريح الذي أهلك عاداً . والصيحة التي أبادت ثمود . والعذاب الذي هلك به نمروز . والخسف الذي نزل بقرى قوم لوط و هم فيها . فما كان الله ليظلمهم حينما عذبهم . وقد أنذرهم ومن أنذر فقد أعذر " ولكن كانوا أنفسهم يظلمون "

والغرض من ضرب المثل أن يفهم الكفار و المنافقون جيداً أن سنة الله مع الخلق لا تتغير ولا تتبدل وأن العذاب سينزل بهم حتماً ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ [1] . فاعتبروا يا أولي الأبصار [2] .

الموضع السادس : في سورة هود :

وهو قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [3] .

الغرض :- بيان أن شعيب عليه السلام ذكر قومه بما حدث لقوم نوح وغيرهم .

ففي هذه الآية الكريمة يحكي الحق سبحانه وتعالى ما حدث من شعيب عليه السلام مع قومه وهو يذكرهم بما حدث لقوم نوح وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، من الهلاك بعد تكذيب أنبيائهم ، وذلك بعد حوار طويل بينه وبين قومه هم يريدون الإنقاص في الكيل والميزان ، وهو يريد الطريقة المثلى في معاملة الناس لا نقص ولا زيادة ، وقد حذرهم مغبة فعلهم هذا بذكر ما جري لمن كان قبلهم من المجرمين الذين تمادوا في جرمهم برغم إرسال الرسل إليهم وتبين الأمر لهم

فالمجال هنا أيضا مختلف عما جاء في سورتي الأعراف والتوبة .

---

١ - آية رقم ٤٣

٢ - ينظر التفسير الواضح ١ / ٩٠٣ وما بعدها ..

٣ - آية رقم ٨٩

يقول الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره للآية (يقول تعالي ذكره مخبرا عن قيل شعيب لقومه " و يا قوم لا يجر منكم شقاقي " يقول لا يحملنكم عداوتي وبغضي وفراق الدين الذي أنا عليه . علي الإصرار علي ما أنتم عليه من الكفر بالله وعبادة الأوثان وبخس الناس في المكيال والميزان وترك الإنابة والتوبة فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق , أو قوم هود من العذاب , أو قوم صالح من الرجفة , وما قوم لوط الذين ائتفكت بهم الأرض منكم ببعيد هلاكهم أفلا تتعظون وتعتبرون يقول فاعتبروا بهم واحذروا أن يصيبكم بشقاقي مثل الذي أصابهم) (1) .

ويقول صاحب التفسير القرآني للقرآن رحمه الله عند تفسيره للآية (وفي هذه الآية يتابع شعيب عليه السلام النصح لقومه ، وفي كل مرة يدعوهم إليه بتلك الكلمة الودود يا قوم أي يا أهلي ويا أحبابي " لا يجرمنكم شقاقي " أي لا يكن عنادكم لي وخلافكم علي سببا في ارتكاب هذا الجرم "

الغليظ في حق أنفسكم فتقتلوا أنفسكم بأيديكم , إن امتناعكم عن الاستجابة لي وعن قبول الخير الذي أبسط به يدي إليكم هو جريمة تقترفونها في حق أنفسكم , و تتعرضون لأن يصيبكم من الله ما أصاب الظالمين من قبلكم قوم نوح , وقوم هود , وقوم صالح , وقوم لوط الذين لم يبعد الزمن كثيراً بينكم و بين ما حل بهم من عذاب الله ونقمته) (2) .

الموضع السابع : في سورة إبراهيم :

---

١ – ينظر تفسير الطبري ٧/٦٣

٢ – ينظر : التفسير القرآني للقرآن ٣ / ١١٩٠ و ما بعدها

وهو قوله تعالى " ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم و قالوا إنا بما أرسلتم به و إنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب " [١] .

الغرض : بيان أن موسى عليه السلام ذكر قومه بما حدث للسابقين من الأمم ومنهم قوم نوح .

ففي هذه الآية الكريمة يحكي الحق سبحانه و تعالى ما حدث من موسى عليه السلام مع قومه ، وهو يذكرهم بما حدث للمكذبين لرسلهم من قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، أهلكهم الله بذنوبهم ، وما كان ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

فالآية الكريمة واردة لوعظ قوم موسى ، و تخويفهم لعلهم يتذكرون و هي مختلفة عما جاء في السور السابقة (سورة الأعراف ، و سورة التوبة ، و سورة هود)

يقول الإمام الرازي رحمه الله عند تفسيره للآية (ثم إنه تعالى قال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾

وذكر أبو مسلم الأصفهاني أنه يحتمل أن يكون ذلك خطاباً من موسى عليه السلام لقومه ، والمقصود منه أنه عليه السلام كان يخوفهم بمثل هلاك من تقدم .

ويجوز أن يكون مخاطبة من الله تعالى على لسان موسى لقومه يذكرهم أمر القرون الأولى ، والمقصود إنما هو حصول العبرة بأحوال المتقدمين .

إلا أن الأكثرين ذهبوا إلى أنه ابتداء مخاطبة لقوم الرسول ﷺ) [١] .

---

١ - آية رقم ٩ .

وقال النيسابوري رحمه الله (" ألم يأتيكم " يحتمل أن يكون خطاباً من موسى لقومه و الغرض تخويفهم بمثل هلاك من تقدم من القرون ، فيكون داخلاً تحت التذكير بأيام الله .

واحتمل أن يكون مخاطبة من الله على لسان موسى لقومه يذكرهم أمر القرون الأولى قاله أبو مسلم .

والأكثرون على أنه ابتداء مخاطبة لقوم الرسول ﷺ تحذيراً لهم عن مخالفته) (٢) .

والذي أميل إليه أن الخطاب في الآية الكريمة إما من موسى عليه السلام لقومه يخوفهم بمثل هلاك من تقدم من القرون السابقة أو من الله سبحانه و تعالى على لسان موسى لقومه يذكرهم أمر القرون الأولى ، و ليس خطاباً لقوم الرسول ﷺ لأن سياق الآيات الكريمة يشعر أن الخطاب إما من موسى لقومه ، أومن الله على لسان موسى لقومه .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ، وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ، وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

ثم يقول بعد ذلك مباشرة " ألم يأتيكم نبأ الزمن الذين من قبلكم " (١) .

---

١ - ينظر : تفسير الرازي ١٠ / ٦٩ .

٢ - ينظر : تفسير النيسابوري ٧ / ١٠٧ هامش الطبري

ومن قال غير ذلك فقد خالف سياق الآيات .

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله مؤيداً هذا الكلام السابق ويستمر موسى في بيانه وتذكيره لقومه . ولكنه يتوارى عن المشهد لتبرز المعركة الكبرى بين أمة الأنبياء والجاهليات المكذبة بالرسل والرسالات وذلك من بدائع الأداء في القرآن . لإحياء المشاهد . ونقلها من حكاية تروى إلى مشهد ينظر ويسمع . وتتحرك فيه الشخوص . و تتجلى فيه السمات والانفعالات .

والآن إلى الساحة الكبرى التي يتلاشى فيها الزمان و المكان .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

هذا التذكير من قول موسى ولكن السياق منذ الآن يجعل موسى يتوارى ليستمر في عرض قصة الرسل والرسالات في جميع أزمانها . قصة الرسل والرسالات في مواجهة الجاهلية وعاقبة المكذبين بها على اختلاف الزمان والمكان . وكأن موسى " رواية " يبدأ بالإشارة إلى أحداث الرواية الكبرى ثم يدع أبطالها يتحدثون بعد ذلك و ينصرفون . وهي طريقة من طرق العرض للقصة في القرآن تحول القصة المكية إلى رواية كما أسلفنا . وهنا نشهد الرسل الكرام في موكب الإيمان . يواجهون البشرية مجتمعة في جاهليتها . حيث تتوارى الفواصل بين أجيالها و أقوامها . وتبرز الحقائق الكبرى مجردة عن الزمان والمكان . كما هي في حقيقة الوجود خلف حواجز الزمان والمكان .

١ – سورة إبراهيم الآيات ٥ – ٩ .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ فهم كثر إذن وهناك غير من جاء ذكرهم في القرآن ما بين ثمود وقوم موسى ، والسياق هنا لا يعني بتفصيل أمرهم ، فهناك وحدة في دعوة الرسل ، ووحدة فيما قوبلت به ، وجاءتهم رسلهم بالبينات " الواضحات التي لا يلتبس أمرها على الإدراك السليم " فردوا أيديهم في أفواههم و قالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب " ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل من يريد تمويج الصوت ليسمع عن بعد ، بتحريك كفه أمام فمه وهو يرفع صوته ذهاباً وإياباً فيتموج الصوت ويسمع ، يرسم السياق هذه الحركة التي تدل على جهرهم بالتكذيب والشك ، وإفحاشهم في هذا الجهد ، وإيتانهم بهذه الحركة الغليظة التي لا أدب فيها ولا ذوق إمعانا لهم في الجهر بالكفر) [١] .

الموضع الثامن : في سورة الإسراء :

وهو قوله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [٢] .

الغرض : بيان نعم الله على بني إسرائيل .

ففي هذه الآية الكريمة يبين الحق سبحانه و تعالى لبني إسرائيل فضله عليهم حين أخرجهم من أبناء وزراري البقية الباقية من قوم نوح الذين آمنوا معه ، وحملوا في السفينة و نجوا من الغرق ، الذي حل بإخوانهم الكافرين .

وإذن : فعليهم أن يتأسوا بآبائهم ، ويؤمنوا مثلهم ، ويشكروا ربهم أن بعث فيهم رسولاً وأنزل معه كتاباً يهديهم إلى الحق ، وإلى صراط الله المستقيم ، كما كان نوح ﷺ عبداً طائعاً لله ، لا يشرك به شيئاً شكوراً لما أنعم به عليه .

---

١ – ينظر : الظلال ٤ / ٢٠٨٩ و ما بعدها

٢ – آية رقم ٣ .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب في تفسيره للآية (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً " الذرية أي النسل الذي تناسل من نوح و أبنائه أي أن بني إسرائيل هؤلاء – هم من أبناء وذراري البقية الباقية من قوم نوح – ، الذين آمنوا معه ، وحملوا في السفينة ونجوا من الغرق ، وفي وصف بني إسرائيل بهذه الصفة إلفات لهم إلى أنهم من ذرية قوم مؤمنين نجاهم الله بإيمانهم من الغرق الذي حل بإخوانهم الكافرين .

وإذن ، فخروج بني إسرائيل من الإيمان الذي كان عليه آباؤهم الأولون ، ودعوتهم إلى الكفر الذي كان عليه إخوان آبائهم هؤلاء – هو تضيع لهذا الميراث الكريم الذي تركه لهم آباؤهم ، ثم هو عدوان على الله وتعرض لنقمته ، كما انتقم من عمومتهم فأغرقهم و اجتث أصولهم .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ تحريض لبني إسرائيل على أن يلحقوا بنوح و يتأسوا به و يشكروا الله أن بعث فيهم رسولاً ، وأنزل معه كتاباً يهديهم ويبين لهم طريق الحق) [1] .

ويقول الدكتور وهبة الزحيلي في تفسيره للآية (ثم أبان الله تعالى تشريفه لبني إسرائيل و إتمام نعمته عليهم ، لحملهم على إتباع الرسل ، فقال " ذرية من حملنا مع نوح " أي يا ذرية أو نسل و حفدة أولئك الذين نجاهم الله من الغرق مع نوح ، وهداهم إلى طريق التوحيد و الحق و الخير ، تشبهوا بأصولكم ، فأنتم أولى الناس بالتوحيد و إتباع سيرة الأنبياء والمرسلين ، وفي مقدمتهم أبوكم نوح عليه السلام ، الذي كان عبداً مبالغاً في الشكر لنعم الله وعرفان قدره وعظمته ، وإنما يكون العبد شكوراً إذا كان موحداً لا يرى حصول شيء من النعم إلا من فضل الله فاقتفوا أثره ، واتبعوا منهجه ، وسنته ، واقتدوا به كما أن آباءكم اقتدوا به [2]

١ – ينظر :

٢ – ينظر : التفسير المنير ١٥ / ١٥ .

الموضع التاسع : في سورة الإسراء أيضاً

وهو قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (١) .

الغرض : تهديد مشركي قريش .

ففي هذه الآية الكريمة يحذر المولى تبارك و تعالى كفار قريش أن يصيبهم من الهلاك مثلما أصاب القرون الأولى التي كذبت رسلها ، فأهلكهم الله بذنوبهم ، فيقول لهم بأننا أهلكنا قروناً كثيرة بعد نوح كانوا على مثل ما أنتم عليه ، ولستم بأكرم على الله منهم فاحذروا أن يحل بكم من الهلاك مثل ما حل بهم .

يقول الطبري – رحمه الله – في تفسيره للآية (القول في تأويل قوله تعالى " وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح و كفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً " وهذا وعيد من الله تعالى ذكره مكذبي رسوله محمد ﷺ من مشركي قريش ، وتهديد لهم بالعقاب ، وإعلام منه لهم أنهم إن لم ينتهوا عماهم عليه مقيمون من تكذيبهم رسوله ﷺ أنه محل بهم سخطه ومنزل بهم من عقابه ما أنزل بمن قبلهم من الأمم الذين سلكوا في الكفر بالله وتكذيب رسله سبيلهم يقول الله تعالى ذكره " وقد أهلكنا أيها القوم من قبلكم من بعد نوح إلى زمانكم قروناً كثيرة كانوا من جحود آيات الله و الكفر به وتكذيب رسله على مثل الذي أنتم عليه ولستم بأكرم على الله تعالى منهم ، لأنه لا مناسبة بين أحد وبين الله جل ثناؤه فيعذب قوماً بما لا يعذب به آخرين أو يعفو عن ذنوب ناس فيعاقب عليها آخرين يقول جل ثناؤه فأنيبوا إلى طاعة الله ربكم فقد بعثنا إليكم رسولاً ينبهكم على حججنا عليكم و يوقظكم من غفلتكم و لم نكن لنعذب قوماً نبعث إليهم رسولاً

---

١ – آية رقم ١٧ .

منبهاً لهم على حجج الله و أنتم على فسوقكم مقيمون وكفى بربك يا محمد بذنوب عباده خبيراً يقول و حسبك يا محمد بالله خابر بذنوب خلقه عالماً فإنه لا يخفى عليه شيء من أفعال مشركي قومك هؤلاء ولا أفعال غيرهم من خلقه هو بجميع ذلك عالم خابر بصير يقول يبصر ذلك كله فلا يغيب عنه منه شيء , ولا يعزب عنه من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر [1] .

ويقول الأستاذ المراغي في تفسيره للآية ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾أي وقد أهلكنا أمما كثيرة قبلكم من بعد نوح حتى زمانكم جحدوا آيات الله و كذبوا رسله وكانوا على مثل ما أنتم عليه من السرور والآثام , ولستم بأكرم على الله منهم فاحذروا أن يحل بكم من العقاب مثل ما حل بهم وينزل بكم سخطه مثل ما نزل بهم , وفي هذا من الوعيد لمكذبي رسول الله من مشركي قريش و تهديدهم بشديد العقــاب . إن لم ينتهوا عما هم عليه من تكذيب رسوله ما لا يخفى [2] .

الموضع العاشر : في سورة مريم

وهو قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [3] .

الغرض : التعريف بآباء الأنبياء

---

١ – ينظر تفسير الطبري ٨ / ٤٣ ..
٢ – ينظر : تفسير المراغي ٥ / ٢٩٧ وما بعدها .
٣ – آية رقم ٥٨ .

ففي هذه الآية الكريمة يخبرنا الحق سبحانه و تعالى بأن الأنبياء الذين ورد ذكرهم في السورة الكريمة و غيرها هم أبناء لهؤلاء الأنبياء ﷺ . فهم من ذرية آدم , ومن ذرية من حملنا مع نوح , ومن ذرية إبراهيم , ومن ذرية إسرائيل , ومن ذرية من اخترناه لرسالتنا ووحينا.

وقد ورد اسم نوح في الآية الكريمة على أنه واحد من آباء الذين أنعم الله عليهم من النبيين .

يقول الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره للآية (يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ هؤلاء الذين اقتصصت عليك أنباءهم في هذه السورة يا محمد الذين أنعم الله عليهم بتوفيقه فهداهم لطريق الرشد من الأنبياء من ذرية آدم و من ذرية من حملنا مع نوح في الفلك و من ذرية إبراهيم خليل الرحمن و من ذرية إسرائيل وممن هدينا للإيمان والعمل بطاعته , واجتبينا يقول وممن اصطفينا واخترنا لرسالتنا و وحينا , فالذي عنى به من ذرية آدم , إدريس و الذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح إبراهيم , والذي عنى به من ذرية إبراهيم إسحاق ويعقوب وإسماعيل , والذي عنى به من ذرية إسرائيل موسى وهارون وزكريا وعيسى وأمة مريم لذلك فرق تعالى ذكره أنسابهم و إن كان يجمع جميعهم آدم لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة , وهو إدريس , وإدريس جد نوح (1)

ويقول صاحب الظلال – رحمه الله – (السياق يقف في هذا الاستعراض عند المعالم البارزة في صفحة النبوة من تاريخ البشرية , من ذرية آدم , وممن حملنا مع نوح , ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل فآدم يشمل الجميع , ونوح يشمل

---

١ – ينظر : تفسير الطبري ٨ / ٧٣ .

من بعده ، وإبراهيم يشمل فرعي النبوة الكبيرين ، ويعقوب يشمل شجرة بني إسرائيل وإسماعيل و إليه ينتسب العرب ومنهم خاتم النبيين .

أولئك النبيون ومعهم من هدى الله واجتبى من الصالحين من ذريتهم – صفتهم البارزة إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً فهم أتقياء شديدوا الحساسية بالله ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليهم آياته ، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر ، فتفيض عيونهم بالدموع ويخرون سجداً وبكياً) [1] .

الموضع الحادي عشر : في سورة الحج

وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ، وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ، وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [2] .

الغرض : تسلية الرسول ﷺ .

ففي هذه الآيات يخاطب المولى سبحانه و تعالى نبيه ، قائلاً له بأن هذا التكذيب الذي حدث من قومك ليس بدعاً في الأمم ، فكثير منها قد كذبت رسلها ، فحل بها من الهلاك ما فيه عبرة لمن اعتبر ، و هذا تسلية للرسول ﷺ .

وقد ورد اسم نوح في هذه الآيات مضافاً إلى قومه ليعرفهم به حين أراد سبحانه أن يذكرهم في قائمة المكذبين للرسل .

---

١ – ينظر : الظلال ٤ / ٢٣١٥ .
٢ – الآيات رقم ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب في تفسيره للآية (في هذه الآيات مواساة للنبي الكريم وعزاء جميل من رب العالمين لما يلقى من قومه من تكذيب و سفه وتطاول,فتلك هي سبيل الأنبياء , مع أقوامهم " كلما جاء أمة رسولها كذبوه " [1] . وأنت أيها النبي لست بمعزل عن هذا و لا قومك ببدع بين الأقوام , إنه حق و باطل , وهدى و ضلال , وإنه لا بد من صدام بين أصحاب الحق وأهل الباطل , وبين دعاة الهدى , وأئمة الضلال " فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم [2] [3] .

وقال الأستاذ المراغي في تفسيره للآية (بعد أن بين سبحانه فيما سلف أن المشركين أخرجوا المؤمنين من ديارهم بغير حق و أنه أذن لهم في مقاتلتهم , وضمن لهم النصرة عليهم , أردف هذا تسلية الرسول على ما يرى من قومه , وتصبره علىه أذاهم وتكذيبهم إياه فأبان له أن هذا التكذيب ليس بدعا في الأمم فكثير منها قد كذبت رسلها , فحل بها من البوار ما فيه عبره لمن اعتبر و تذكر مما يشاهدونه رأى العين في حلهم وترحالهم , وفي غدوهم ورواحهم فلا تحزن على ما ترى , واصبر فإن العاقبة للمتقين) [4] .

الموضع الثاني عشر : في سورة الفرقان

وهو قوله تعلى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [5] .

الغرض : بيان عقوبة تكذيب قوم نوح له عليه السلام .

---

١ – سورة المؤمنون آية رقم ٤٤ .
٢ –سورة الأحقاف آية رقم ٣٥ .
٣ – ينظر : التفسير القرآني ٥ / ١٠٤٩ .
٤ – ينظر : تفسير المراغي ٦ / ٤٤١ .
٥ – آية رقم ٣٧ .

ففي هذه الآية الكريمة يبين الحق سبحانه و تعالى ما حدث لقوم نوح من الغرق جزاء تكذيبهم له و مخالفتهم إياه ، ثم بينت لمشركي قريش أن حالهم إذا استمروا على تكذيب محمد ﷺ سيكون لا محالة كحال أولئك المكذبين القدامى .

وقد ورد اسم نوح عليه السلام في الآية مضافاً إلى قومه و لكن ليس لتسلية الرسول ﷺ عن تكذيب قومه له مباشرة كما كان في سورة الحج بل في بيان ما يحدث لأعداء الأنبياء من الهلاك جزاء تكذيبهم و مخالفتهم لأنبيائهم ، فالمجال إذن مختلف عما سبق .

قال ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره للآية الكريمة (يقول تعالى متوعداً من كذب رسوله محمداً ﷺ من مشركي قومه و من خالفهم ومحذرهم من عقابه و أليم عذابه مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله ، فبدأ بذكر موسى و أنه بعثه و جعل معه أخاه هارون وزيراً أي نبياً مؤازراً و ناصراً فكذبهما فرعون و جنوده و أمر الله عليهم و للكافرين أمثالها) (١) . و كذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا نوحاً عليه السلام ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل ، إذ لا فرق بين رسول ورسول) (٢) .

وقال الدكتور وهبه الزحيلي في تفسيره

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾أي و اذكر يا محمد لقومك ما فعله قوم نوح حين كذبوا رسولهم نوحاً عليه السلام الذي مكث فيهم يدعوهم إلى توحيد الله و يحذرهم من عقابه ونقمته ألف سنة إلا خمسين فما آمن به إلا قليل فأغرقناهم بالطوفان وجعلناهم عبرة وعظة للناس يعتبرون بها كما

---

١ – سورة محمد آية رقم ١٠ .

٢ – ينظر : تفسير بن كثير ٣ . ٢٢٩ /

قال تعالى : " إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة و **تعيها إذن واعية** " (١) .

وقوله " كذبوا الرسل " قصد به تكذيب نوح عليه السلام , على أساس أن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب بجميع الرسل إذ لا فرق بين رسول ورسول , فدعوتهم إلى توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام واحدة , ولو فرض أن الله تعالى بعث إليهم كل رسول فإنهم كانوا يكذبونه , ثم عمم تعالى الحكم فقال " واعتدنا للظالمين عذاباً أليماً " أي وأعددنا وهيأنا عذاباً مؤلماً في الآخرة لكل ظالم كفر بالله , ولم يؤمن برسله , وسلك سبيلهم في تكذيب الرسل , وفي هذا تهديد لكفار قريش أنه سيصيبهم من العذاب مثلما أصاب قوم نوح) (٢) .

الموضع الثالث عشر : في سورة الأحزاب

وهو قوله تعالى " وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم و أخذنا منهم ميثاقاً غليظاً " (٣) .

الغرض : بيان ميثاق الله مع النبيين .

ففي هذه الآية الكريمة يبين الحق سبحانه و تعالى أنه أخذ ميثاقه على الأنبياء عامة و أولى العزم من الرسل خاصة , أن يبلغوا رسالات ربهم إلى الناس , حتى لا يكون لهم عذر عند الله .

وقد خص بالذكر هؤلاء الخمسة نوح , ومحمد , وإبراهيم , وموسى , وعيسى للدلالة على أنهم في غاية الشرف و العلو و الكمال .

---

١ - الحاقة الآيتان ١١ , ١٢ .
٢ - ينظر : التفسير المنير ١٩/ ٦٦ .
٣ - آية رقم ٧ .

يقول صاحب الظلال – رحمه الله – في تفسيره للآية (و بمناسبة ما سطر في كتاب الله ، وما سبقت به مشيئته ، ليكون هو الناموس الباقي ، والمنهج المطرد ، يشير إلى ميثاق الله مع النبيين عامة ، والنبي ﷺ وأولي العزم من الرسل خاصة ، في حمل أمانة هذا المنهج ، والاستقامة عليه ، وتبليغه للناس ، والقيام عليه في الأمم التي أرسلوا إليها ، وذلك حتى يكون الناس مسؤوليين عن هداهم وضلالهم وإيمانهم وكفرهم ، بعد انقطاع الحجة بتبليغ الرسل عليهم صلوات الله وسلامه " وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ، ليسئل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً " إنه ميثاق واحد مطرد من لدن ﷺ إلى خاتم النبيين محمد ﷺ ميثاق واحد ، ومنهج واحد ، وأمانة واحدة يتسلمها كل منهم حتى يسلمها ، وقد عمم النص أولا ، وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم " ثم خصص صاحب القرآن وصاحب الدعوة العامة إلى العالمين " ومنك " ثم عاد إلى أولى العزم من الرسل وهم أصحاب أكبر الرسالات قبل الرسالة الأخيرة " ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم " وبعد بيان أصحاب الميثاق عاد إلى وصف الميثاق نفسه " وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً " ووصف الميثاق بأنه غليظ منظور فيه إلى الأصل اللغوي للفظ ميثاق وهو الحبل المفتول الذي استعير للعهد والرابطة وفيه من جانبه آخر تجسيم للمعنوي يزيد إيحاءه للمشاعر ، وإنه لميثاق غليظ متين ذلك الميثاق بين الله و المختارين من عباده ، ليتلقوا وحيه ، ويبلغوا عنه ، ويقوموا على منهجه في أمانة واستقامة) [1] .

ويقول الأستاذ الدكتور وهبه الزحيلي في تفسيره للآية (و بعد بيان مكانة النبي ﷺ بين المؤمنين ، أبان الله تعالى سمو مهمته و علو منزلته في تبليغ الشرائع ، والدعوة إلى دين الله ورسالة ربه ، ووفائه بتلك المهمة عملاً بميثاق

---

١ – ينظر : الظلال ٥ / ٢٨٨٩ و ما بعدها .

النبيين في أنهم يبلغون رسالات الله , وكأنه تعالى من بداية ا لسورة إلى هنا قال لنبيه تعليماً للأمة , ولا تخف أحداً واذكر أن الله أخذ ميثاق النبيين في أنهم يبلغون شرائع الله , ولا يمنعهم من ذلك خوف ولا طمع , فقال : " وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً " واذكر أيها الرسول أننا أخذنا العهد المؤكد على جميع الأنبياء ولا سيما أولوا العزم منهم وهم الخمسة المذكورين في الآية , في أنهم يبلغون رسالة الله إلى أقوامهم , ويقيمون دين الله تعالى , ويتناصرون ويتعاونون فيما بينهم بإكمال بعضهم رسالة من تقدمه كما قال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (١) .

أي أخذ عليهم أن يعلنوا أن محمداً رسول الله و يعلن محمد أن لا نبي بعده

ثم أكد الله تعالى ذلك الميثاق , فوصفه بالشدة والغلظ مبالغة في حرمته وعظمته و ثقل تبعته مسؤليته

والمعني : وأخذنا منهم بذلك الميثاق ميثاقاً غليظاً , فالميثاق الثاني هو الأول مؤكداً باليمين , أو مكرراً لبيان صفته , من طريق استعارة الغلظ من صفة الأجساد المادية إلى الأشياء المعنوية , مبالغة في بيان حرمته وعظمه وخطورته ، وقد خص الله تعالى بالذكر خمسة رسل هم أولوا العزم تنويها بشأنهم , و بيان أهمية رسالاتهم من باب عطف الخاص على العام كما في آية

١ - سورة آل عمران آية ٨١ .

أخرى " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً و الذي أوحينا إليك و ما وصينا به إبراهيم و موسى بن مريم أن أقيموا الدين و لا تتفرقوا فيه) [١][٢] .

الموضع الرابع عشر : في سورة "ص"

و هو قوله تعالى " كذبت قبلهم قوم نوح و عاد وفرعون ذو الأوتاد و قوم لوط و أصحاب الأيكة أولئك الأحزاب إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب " [٣] .

الغرض : تهديد كفار مكة ، و تسلية محمد ﷺ .

ففي هذه الآية الكريمة يذكر الحق سبحانه و تعالى ستة أقوام من الذين كذبوا أرسلهم و ما آل إليه أمرهم لتكون ذكرى لأولئك المكذبين من قريش ، و زجراً لهم عن العناد و اللجاج ، و تسلية لنبيه محمد عليه الصلاة و السلام عن أسفه على تكذيبهم و جحودهم للدعوة المحمدية مع صدقها و تأييدها المطلق بالبراهين والمعجزات و قد ورد ذكر اسم نبي الله نوح عليه السلام في الآية مضافاً إلى قومه .

يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب في تفسيره للآية (في هذا العرض للأقوام الذين كذبوا رسل الله أمران :

الأول : "مواساة النبي الكريم ، بهذا الذي لقيه رسل الله من قبله من تكذيب أقوامهم لهم ، فليس النبي ﷺ بدعاً فيما ناله من قومه من أذى وضر .

---

١ – سورة الشورى آية رقم ١٣ .
٢ – ينظر : التفسير المنير ٢١ / ٢٤٨ و ما بعدها .
٣ – آية رقم : ١٢ .

والثاني : هو تهديد لهؤلاء المشركين أن يلقوا هذا المصير المشئوم الذي لقيه المكذبون برسل الله) [١] .

ويقول صاحب الظلال – رحمه الله – " كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد وثمود وقوم لوط و أصحاب الأيكة أولئك الأحزاب إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب "

فهذه أمثلة ممن سبقوا قريشاً في التاريخ قوم نوح و عاد وفرعون صاحب الأهرام التي تقوم في الأرض كالأوتاد ، و ثمود و قوم لوط ، و قوم شعيب أصحاب الأيكة الغابة الملتفة ، أولئك الأحزاب ، الذين كذبوا الرسل ، فماذا كان من شأنهم و هم طغاة بغاة متجبرون ؟ فحق عقاب و كان ما كان من أمرهم ، و ذهبوا فلم يبق منهم غير آثار تنطق بالهزيمة و الاندحار .

ذلك كان شأن الأحزاب الغابرة في التاريخ فأما هؤلاء فمتروكون في عمرهم إلى الصيحة التي تنهي الحياة في الأرض قبيل يوم الحساب [٢] .

الموضع الخامس عشر : في سورة غافر

وهو قوله تعالى : ﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ، وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ، إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ** ﴾ [٣] .

الغرض : تسلية محمد ﷺ .

---

١ – ينظر :التفسير القرآني للقرآن ٦ / ١٠٥٦ .
٢ – ينظر : الظلال ٥ / ٣٠١٤ .
٣ – آية رقم ٥ .

ففي هذه الآية الكريمة يخاطب الحق سبحانه وتعالي نبيه قائلا له بأن كفار مكة ليسوا أول من كذب بالله ، فقد كذبت من قبلهم أقوام وهموا أن يلحقوا الأذى بأنبيائهم ، فذاقوا وبال أمرهم ، وكانت عاقبة أمرهم خسرا ومن هؤلاء قوم نوح والأحزاب من بعدهم .

وسأفعل بقومك مثلما فعلت بهم إن هم أصروا علي الكفر والعناد . وفي هذه تسلية للنبي ﷺ عما يكنه من حزن لتكذيب قومه له ، وبعدهم عن الجادة وانغماسهم في الباطل واللجاج .

وقد ورد اسم نوح عليه السلام في الآية مضافا إلي قومه .

يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب في تفسيره للآية ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

" هذا تهديد لهؤلاء المشركين بعذاب الله ، الذي يقع بالضالين المكذبين فهم ليسوا أول من كذب بالله ، فقد كذبت من قبلهم أقوم بعد أقوام ، كذبت قبلهم قوم نوح ، وكذلك كذب الأحزاب من بعد قوم نوح ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، أي أرادت كل أمة من هذه الأمم الضالة ، أن تلحق الأذى برسولها أو أن تفتك به " وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق " أي وأقبلوا بالباطل الذي بين يدي النبي ويقيموا لهذا الباطل حججا من السفه والضلال فماذا كان مصيرهم ؟ لقد أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر) [1] .

ويقول الأستاذ المراغي رحمه الله (ثم قال مسليا رسوله علي تكذيب من كذبه من قومه ، بأن له أسوة في سلفه والأنبياء ، فإن أقوامهم كذبوا وما آمن

---

١ – ينظر : التفسير القرآني ٦ / ١٢٠٦ .

منهم إلا قليل) فقال : " كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم " أي كذبت قوم نوح والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب , فحلت بهم نقمتنا بعد بلوغ أمرهم كما هي سنته في أمثالهم من المكذبين كعاد وثمود ومن بعدهم , وكانوا في جدلهم على مثل الذي عليه قومك . فأهلكتهم واستأصلت شأفتهم فلم ابق منهم ديارًا ولا نافخ نار , وصاروا كأمس الدابر , وإنكم لتمرون على ديارهم مصبحة وممسين

وهكذا سأفعل بقومك إن هم أصروا على الكفر والجدل في آيات الله) [1] .

الموضع السادس عشر : في سورة غافر أيضا .

وهو قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ، مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [2] .

الغرض : بيان أن مؤمن آل فرعون قد ذكر قومه بما حدث للمكذبين من الأقوام السابقة و منهم قوم نوح .

ففي هذه الآيات الكريمة يذكر الحق سبحانه و تعالى أن مؤمن آل فرعون قد حذر قومه بأس الله في الدنيا و الآخرة إن هم أصروا على تكذيبهم لموسى , وكفرهم بالله , وقد ذكرهم بما حدث لقوم نوح ومن بعدهم من المكذبين رجاء أن يتعظوا فينزجروا عن الكفر واقتراف المعاصي والآثام . وقد ورد اسم نوح عليه السلام في هذه الآية مضافاً إلى قومه .

---

١ - ينظر تفسير المراغي ٨ / ٢٩٥ .
٢ - الآيتان رقم ٣٠ , ٣١ .

قال ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره للآية (هذا إخبار من الله عز وجل عن هذا الرجل الصالح مؤمن آل فرعون أنه حذر قومه بأس الله في الدنيا والآخرة فقال (يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب) أي الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة كيف حل بهم بأس الله وما رده عنهم راد ولا صده عنهم صاد وما الله يريد ظلماً للعباد) [١] .

وقال صاحب التفسير المنير في تفسيره للآية (وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعـاد وثمود والذين من بعدهم) أي لقد حذر هذا الرجل المؤمن الصالح قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة , فبدأ بتخويف العذاب الدنيوي , فقال يا قوم إني أخشى عليكم إن كذبتم موسى أن يصيبكم مثلما أصاب الأقوام الذين تحزبوا على أنبيائهم وكذبوا رسلهم من الأمم الماضية , كقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم كقوم لوط فقد حل بهم بأس الله ولم يجدوا لهم ناصراً ينصرهم , ولا عاصماً يحميهم , وما لله يريد ظلماً للعباد , أي لا يريد الله إلحاق ظلم بعباده , فلم يهلكهم بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره) [٢] .

الموضع السابع عشر : في سورة الشورى

وهو قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ

---

١ – ينظر :تفسير بن كثير ٤ / ٨٠ .
٢ – ينظر : التفسير المنير ٢٤ / ١١٦ , تفسير المراغي ٨ / ٣١٣ .

كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (١) .

الغرض : بيان أولوا العزم من الرسل

ففي هذه الآية الكريمة يذكر الحق سبحانه وتعالى أولوا العزم من الرسل ليبين لنا أن فيهم واحد منذ أرسل سبحانه أول رسول إلى الأرض وهو نوح عليه السلام إلى أن أرسل عز اسمه آخرهم وخاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام . وذلك المنهج هو إقامة الدين و عدم التفرق فيه .

وإنما خصهم الله سبحانه وتعالى وحدهم بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء ، وأصحاب الشرائع العظيمة ، والأتباع الكثيرة . وقد أطلق عليهم أو لوا العزم من الرسل .

قال ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره للآية (يقول تعالى لهذه الأمة " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً و الذي أوحينا إليك " فذكر أول الرسل بعد آدم عليه السلام وهو نوح عليه السلام وآخرهم وهو محمد ﷺ ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم وهو إبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تبارك و تعالى :" **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح و إبراهيم وموسى وعيسى بن مريم**" الآية (٢)

---

١ – آية رقم ١٣ .
٢ – الأحزاب آية رقم ٧ .

والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال عز وجل " وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون " وفي الحديث " نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد "[1] .

أي القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم كقوله جل جلاله ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[2] .

لهذا قال تعالى ها هنا (أن أقيموا الدين و لا تتفرقوا فيه) أي وصى الله تعالى جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والجماعة و نهاهم عن الافتراق و الاختلاف وقوله عز وجل (كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) أي شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم يا محمد من التوحيد ثم قال جل جلاله ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[3] .

وقال الأستاذ المراغي – رحمه الله – في تفسيره للآية (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى) أي شرع لكم من الدين ما شرع لنوح ومن بعده من أرباب الشرائع وأولى العزم من الرسل وأمرهم به أمراً مؤكداً , وتخصيص هؤلاء بالذكر , لعلو شأنهم وعظيم شهرتهم , ولاستمالة قلوب الكفار إلى اتباعه , لاتفاق كلمة أكثرهم على نبوتهم و اختصاص اليهود بموسى عليه السلام , والنصارى بعيسى عليه السلام وإلا فكل نبي مأمور بما أمروا به من إقامة دين الإسلام وهو التوحيد , وأصول الشرائع والأحكام مما لا يختلف باختلاف الأعصار كالإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة واكتساب مكارم الأخلاق و فاضل الصفات .

---

١ – الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب فضائل عيسى عليه السلام ٤ / ١٨٣٧ رقم ١٤٣ .

٢ – المائدة آية رقم ٤٨ .

٣ – ينظر تفسير ابن كثير ٤ / ١١١

وفي الآية إيماء إلى أن ما شرعه الله صادر عن كامل العلم والحكمة ، وأنه دين قديم أجمع عليه الرسل [1] .

الموضع الثامن عشر : في سورة ق

وهو قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [2]

الغرض : تهديد المشركين وتسلية الرسول T .

ففي هذه الآيات يحذر المولى تبارك وتعالى كفار مكة من العذاب الذي سوف يصيبهم إن هم تمادوا في غيهم وكفرهم وتكذيبهم رسول الله, كما أصاب أولئك السابقين الذين كذبوا رسلهم كقوم نوح, ومن جاء بعدهم, أهلكهم الله بصنوف شتى من العذاب , وحق عليهم وعيده ، وهذا تهديد لكفار قريش وتسلية لرسول الله T وقد ورد اسم نوح في الآية الكريمة مضافا إلى قومه .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب في تفسيره للآية (والضمير في قبلهم يعود إلى مشركي مكة وهو المخاطبون بالآيات السابقة, وفي هذه الآيات تعرض عليهم صورة من حياة الماضيين الذين كانوا على ضلال كهؤلاء الضالين .

وقد عرضت عليهم من قبل آيات الله تحمل إليهم دلائل قدرتهم, وما أفاض عليهم وعلى العباد من نعمه ومننه, فإن هم لم ينظروا في هذه الآيات ويهتدوا إلى الله ويؤمنوا به ويشكروا له, أخذهم الله بما أخذ به الضالين المكذبين قبلهم, فهم

١- ينظر : تفسير المراغي ٩ / ٢١ .
٢ - الآيات ١٢ - ١٤

ليسوا أول من كذب بآيات الله وبهت رسل الله وهم لن يخرجوا عن سنة الله التي خلت في أخذ الظالمين بظلمهم وإنزال البلاء بهم) [١]

وقال الأستاذ المراغي رحمه الله في تفسيره للآية (بعد أن ذكر تكذيب المشركين للرسول، أردف ذكر المكذبين للرسل من قبله وبيان مآل إليه أمرهم ، تسلية لرسوله وعبرة لهم وتنبيها إلى أن حاله معهم كحال من تقدمه من الرسل كذبوا فصبروا فأهلك الله مكذبيهم ونصرهم وأعلى كلمتهم كما قال تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ [٢]

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [٣]

ويقول بعد " كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد

هدد سبحانه كفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم من المكذبين قبلهم من النقم والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فقد أغرق قوم نوح بالطوفان وأهلك جميع من ذكروا بعدهم من الأمم التي كذبت رسلها بضروب شتى من العذاب، وحق عليهم وعيده، ونصر رسله، وأعلى كلمتهم وكانت العاقبة لهم كما قال : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾) [٤] [٥] .

---

١ - ينظر : التفسير القرآني للقرآن ٧ / ٤٧٥ وما بعدها

٢ - سورة الحج آية رقم ٤٠

٣ - سورة الصافات الآيتان ١٧١ ، ١٧٢ .

٤ - سورة غافر آية رقم ٥١

٥ - ينظر : تفسير المراغي ٩ / ٢٦٨

الموضع التاسع عشر : في سورة الذاريات

وهو قوله تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (١)

الغرض :وصف قوم نوح بالفسق .

ففي هذه الآية الكريمة يذكر الحق سبحانه وتعالى اسم نوح مضافا إلى قومه، ثم يصفهم سبحانه بأنهم كانوا قوما فاسقين . وقد جاءت هذه الآية الكريمة في نهاية الحديث عن طائفة من قصص الأنبياء الذين كذبوا وعورضوا، وهم لوط، وموسى، وهود ، وصالح . وقد أهلك الله أقوام هؤلاء الأنبياء كل بحسب ما قدر له من الهلاك . ولم يذكر الله في هذه الآية ما أهلك به قوم نوح ولكنه اكتفى بالحكم عليهم بالفسق الموجب للعقاب .

قال الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي في تفسيره للآية (ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن قصص بعض الأنبياء السابقين، فبدأت بجانب من قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة الذين جاءوا لبشارته بابنه إسحاق، ولإخباره بإهلاك قوم لوط، ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن جانب من قصص موسى وهود وصالح عليهم السلام مع أقوامهم ثم ختم بلمحة عن قصة نوح عليه السلام فقال { وقوم نوح من قبل } أي أهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء جميعاً بالطوفان { إنهم كانوا قوما فاسقين } أي خارجين عن طاعتنا منغمسين في الكفر و العصيان، وهكذا ساقت السورة الكريمة جانباً من قصص هؤلاء الأنبياء ليكون في ذلك تسلية للنبي T وتذكره للمتذكرين) (٢)

---

١ – آية رقم ٤٦

٢ – ينظر : التفسير الوسيط ١٤ / ٢٦ بتصرف

الموضع العشرون : في سورة النجم

وهو قوله تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ (١)

الفرق : وصف قوم نوح بالظلم و الطغيان .

ففي هذه الآية الكريمة يذكر الحق سبحانه وتعالى اسم نوح مضافا إلى قومه، وذلك في معرض الحديث عن إهلاكه لعاد الأولى وثمود والمؤتفكات، مبينا أن قوم نوح كانوا هم أظلم وأطغى .

قال الأستاذ الدكتور / محمد سيد طنطاوي في تفسيره للآية (وبعد هذه الجولة في الأنفس والآفاق ساقت السورة جانبا من مصارع الغابرين ، فقال : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ أي وأهلك أيضا قوم نوح من قبل إهلاكه لعاد وثمود ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا ﴾ أي قوم نوح ﴿هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ أي هم كانوا أشد في الظلم والطغيان من عاد وثمود فقد آذوا نوحا عليه السلام أذى شديداً، استمر عليه زمنا طويلا، وكان هلاكهم بالطوفان كما قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (٢) (٣)

الموضع الحادي والعشرون : في سورة الحديد

وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٤)

---

١ - آية رقم ٥٢ .

٢ - سورة العنكبوت آية رقم ١٤

٣ - ينظر : تفسير الوسيط ١٤ / ٨٧ .

٤ - آية رقم ٢٦

الغرض : بيان أن الله شرف نوحا وإبراهيم بالرسالة، وجعل النبوة في ذريتهما.

ففي هذه الآية الكريمة يعلن المولى تبارك وتعالى أن نوحا وإبراهيم قد شرفهما الله بالرسالة، ثم جعل النبوة في ذريتهما .

فما أنزل الله كتابا، ولا أرسل رسولا، إلا وكان من أولادهما .

قال الرازي – رحمه الله – في تفسيره للآية ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ وأعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أرسل الرسل بالبينات والمعجزات، وأنه أنزل الميزان والحديد، وأمر الخلق بأن يقوموا بنصرتهم أتبع ذلك ببيان سائر الأشياء التي أنعم بها عليهم، وبين أنه شرف نوحا وإبراهيم عليهما السلام بالرسالة، ثم جعل في ذريتهما النبوة والكتاب فما جاء لأحد بالنبوة إلا وكان من أولادهما، وإنما قدم النبوة على الكتـــاب ، لأن كمال حال النبي أن يصير صاحب الكتاب والشرع) [١]

وقال صاحب التفسير المنير في تفسيره للآية { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ } أي تالله لقد بعثنا نوحا أب البشر الثاني إلى قومه، وإبراهيم خليل الرحمن أبا الأنبياء وأبا العرب إلى قوم آخرين، وجعلنا الرسالة والنبوة في ذريتهما، فكل الأنبياء من سلالتهما ، فلم يرسل الله بعدهما رسولاً ولا نبيا إلا من ذريتهما ، وكذلك جعلنا الكتب المنزلة فيهما ، فلم ينزل الله كتابا ولا أوحى إلى بشر وحي إلا من سلالتهما .

---

١ – ينظر : تفسير الرازي ١٥ / ٢١٢

﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي كان مصير الذرية الانقسام إلى فريقين، فمنهم جماعة مهتدون إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، وكثير منهم خارجون عن حدود الله وطاعته، وتلك سنة الله مع الأنبياء جميعاً) (١)

الموضع الثاني والعشرون : في سورة التحريم

وهو قوله تعالى : ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ** ﴾ (٢)

الغرض :بيان أن الكفر بالله يدخل صاحبه النار، ولا ينفع معه شفاعة .

ففي هذه الآية الكريمة يبين الحق سبحانه وتعالى أن امرأة نوح لما خانت زوجها بالإعراض عن رسالته ومساعدة الناس على الصد عن دعوته لم ينفعها زوجها مع أنه نبي الله ورسوله، بل قيل لها ولشريكتها في الكفر امرأة لوط ادخلا النار مع الداخلين .

قال الرازي – رحمه الله – في تفسيره للآية (قوله { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا } أي بين حالهم بطريقة التمثيل أنهم يعاقبون على كفرهم وعدواتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير اتقاء ولا محاباة، ولا ينفعهم مع عدواتهم لهم ما كانوا فيه من القرابة بينهم و بين نبيهم وإنكارهم للرسول فيما جاء به من عند الله وإصرارهم عليه وقطع العلائق، وجعل الأقارب من جملة الأجانب بل أبعد منهم، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبيا كحال امرأة نوح ولوط، لما خانتاهما لم يغن هذان الرسولان، وقيل لهما في اليوم الآخر ﴿ ادْخُلَا النَّارَ ﴾ .

---

١ – ينظر : التفسير المنير ٢٧ / ٣٣٧ .

٢ – آية رقم ١٠ .

ولما ضرب المثل بأمره نوح المسماه بواعلة،وامرأة لوط المسماه بواهله ، فمشتمل على فوائد متعددة لا يعرفها بتمامها إلا الله تعالى .

منها : التنبيه للرجال والنساء على الثواب العظيم والعذاب الأليم .

ومنها : العلم بأن صلاح الغير لا ينفع المفسد وفساد الغير لا يضر المصلح

ومنها : أن الرجل وإن كان في غاية الصلاح فلا يأمن المرأة ولا يأمن نفسه, كالصادر من امرأتي نوح ولوط) (١)

وقال الأستاذ المراغي – رحمه الله – في تفسيره للآية (أي ضرب الله مثلا يبين به حال الكافرين الذين لم ينتفعوا بعظات المؤمنين الصادقين من النبيين والمرسلين, لظلمة قلوبهم،وسوء استعداداتهم وفساد فطرتهم, امرأة نوح وامرأة لوط, إذ كانتا في عصمة نبيين يمكنهما أن ينتفعا بهديهما ويحصلا ما فيه سعادتهما في معاشهما ومعادهما لكنهما أبتا ذلك وعملتا ما يدل على الخيانة والكفر, فاتهمت الأولى زوجها بالجنون, وكانت الثانية ترشد قوم لوط إلى ضيوفه لمآرب خبيثة, فلم يدفع عنهما قربهما من ذينك العبدين الصالحين شيئا, وحاق بهما سوء ما عملتا وسيحل بهما عقاب الله, وسيدخلان النار في زمرة داخليها خبراء وفاقا لما اجترحا من السيئات, وما دستا به أنفسهما من كبير الآثام وعظيم المعاصي)(٢)

هذه هي المواضع التي ذكر فيها اسم نبي الله نوح مجردا من غير ذكر لأخباره أو أخبار قومه بالتفصيل وقد رأينا أنه في كل موضع من هذه المواضع غرضا دينيا وفائدة ليست في غيره من المواضع الأخرى حتى نعلم أن اسم نبي الله نوح لم يكرر في القرآن عبثا بل كان وراء ذلك هدفا وسرا ينبغي أن يتنبه له أولوا الأبصار .

---

١ – ينظر : تفسير الرازي ١٥ / ٤٤ وما بعدها بتصرف .

٢ – ينظر : تفسير المراغي ١٠ / ١٤٢ .

الفصل الثالث

من أسرار التنزيل في قصة نوح عليه السلام

المتأمل في الآيات الكريمة التي وردت في قصة نوح عليه السلام، وفي السور التي وردت فيها، يجد أن فيها بعض الآيات قد تكررت وألفاظها متفقة ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف مكان حرف , مما يوجب اختلافا بين الآيتين أو الآيات التي تكررت من غير زيادة أو نقصان .

وسوف أذكر في هذا الفصل تلك الآيات التي تكررت وألفاظها متفقة، ثم أبين السبب الموجب للزيادة والنقصان، والتقديم والتأخير والإبدال، وما الحكمة في تخصيص الآية بذلك دون الأخرى، وهل كان يصلح ما في هذه السورة مكان ما في السورة التي تشاكلها أم لا ؟ ليجرى ذلك مجرى علامات تزيل أشكالها وتمتاز بها عن أشكالها لأن العلماء – رحمهم الله – عدوا ذلك وجها من وجوه إعجاز القرآن وسرا من أسراره لا يدرك إلا بعمق الفهم والتدبر لآيات القرآن الكريم .

ومع الآيات الكريمة الواردة في قصة نوح عليه السلام لنطبق عليها هذا الكلام :

أولا : ورد في كل من سورة هود والمؤمنون والعنكبوت قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ (١) بالواو في كل آية، وجاء في سورة الأعراف قوله عز وجل : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ (٢) بدون الواو .

---

١ – هود آية رقم ٢٥ , المؤمنون آية رقم ٢٣ , العنكبوت آية رقم ١٤

٢ – الأعراف آية رقم ٥٩

والسر في ذلك :

أن العطف في كل من سورة المؤمنون، والعنكبوت واضح صناعة لوجود ما يصلح العطف عليه، ففي سورة المؤمنون سبق نظير لهذا التركيب أعنى قوله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (1) وقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ (2) وفي سورة العنكبوت جاء عطف القصة المذكورة على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (3) .

وفي سورة هود كان التجانس بين قصتي نوح والحديث عن كفرة مكة يقولون بافتراء الرسول بالقرآن مما ضاق به صدر الرسول T مما جوز العطف بين الحديثين، فكأن السورة تقول لقد وقع لك هذا، ولقد وقع لنوح مثله .

أما في سورة الأعراف فإن السابق المباشر على قصة نوح كالغريب عنها من حيث إنه كان متمحضا لذكر آيات الله الكونية فوقع الاستئناف بالقصة بدون واو، وإن كان ذلك لا يخل بالمناسبة، والروابط بين القصة وسابقتها في المعاني العامة الكلية في مجال الهدايات والدعوات إلى الله) (4)

قال الخطيب الاسكافي – رحمه الله – (للسائل أن يسأل عن حذف الواو من { لَقَدْ أَرْسَلْنَا } في هذه السورة " الأعراف " و الإتيان بها في سورتي هود والمؤمنون ؟

---

١ – المؤمنون آية رقم ١٢

٢ – المؤمنون آية رقم ١٧ .

٣ – سورة العنكبوت آية رقم ٣ .

٤ – ينظر : ملامح بلاغية في سورة المؤمنون د / محمود عبد المجيد ص ٩٠

الجواب : أن يقال أن الآيات التي تقدمت قوله { لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا } في هذه السورة " الأعراف" إلى أن اتصلت به في وصف ما اختص الله به من أحداث خلقه والبدائع من فعله من حيث قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ (١) إلى أن ذكر الشمس و القمر والرياح والنبات والأمطار والسهل من الأرض الطيب والحزن منها الصلد, ولم يكن فيها ذكر بعثه نبي ومخالفة من كان له عدو, فصار كالأجنبي من الأول فلم يعطف عليه, واستؤنف ابتداء كلام ليدل على أنه في حكم المنقطع من الأول, وليس كذلك الآية في سورة هود, لأن أولها افتتح إلى قصة نوح بما هو احتجاج على الكفار بآيات الله التي أظهرها على أيدي أنبيائه وألسنتهم صلوات الله على جماعتهم, وتوعد لهم على كفرهم وذكر قصة من قصص من تقدمهم من الأنبياء الذين جحد آياتهم أممهم, فعطف هذه الآية على ما قبلها, إذ كانت مثلها, ألا ترى أن أول السورة ﴿ الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ (٢).

وبعد العشر منها ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ ﴾ (٣) إلى قوله : ﴿ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ (٤) ثم وصف حال من آمن بالله ورسله وأخبت إلى ربه، وحال من افترى على ربه وحصل على خسران نفسه, وشبههما في قوله بحال من انطوى

---

١ – آية رقم ٥٤ .

٢ – سورة هود آية رقم ١ .

٣ – سورة هود آية رقم ١١

٤ – سورة هود آية رقم ١٢

على ذكره ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ [1] فاقتضى تشابه القصتين عطف الثانية على الأولى .

وأما في سورة المؤمنون فإن قبل هذه الآية منها ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [2] ثم قوله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ [3] . ثم انقطعت الآية إلى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [4] فكان ما تقدم في هذا المكان مثل ما تقدم الآية في سورة الأعراف إلا أنه باينه بأن كان فيه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ ﴾ ثم انقطعت إلى قومه : ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ والفلك التي تحمل عليها مما اتخذه نوح عليه السلام، فدخل واو العطف في قصة نوح للفظتين المتقدمتين وهما ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ ﴾ رؤوس الآيتين، وللمعنى المقتضى من ذكر الفلك الذي نجى الله عليه من جعله أصل الخلق وبذر هذا النسل) [5]

وقال الكرماني قوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ في هذه السورة بغير واو وفي هود والمؤمنون " ولقد " بالواو لأنه لم يتقدم في هذه السورة ذكر رسول، فيكون هذا عطفا عليه، بل هو استئناف كلام .

١ – سورة هود آية رقم ٢٤
٢ – سورة المؤمنون آية رقم ١٢
٣ – سورة المؤمنون آية رقم ١٧
٤ – سورة المؤمنون آية رقم ٢٢
٥ – ينظر : درة التنزيل للاسكافي ص ١٤٩ وما بعدها

وفي هود تقدم ذكر الرسول مرات, وفي المؤمنون تقدم ذكر نوح ضمنا في قوله : ﴿ وَعَلَى الْفُلْكِ ﴾ لأنه أول من صنع الفلك, فعطف في السورتين بالواو) (١)

ثانياً : جاء في سورة الأعراف والمؤمنون قول نوح ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٢) وفي سورة هود وفي قصة نوح أيضا جاء قوله لقومه ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ (٣)

والسر في ذلك :

الأول : طريقة صناعية تبدوا في استعمال طريق القصر في التركيبين القرآنيين, فالتركيب الوارد في سورة الأعراف والمؤمنون جاء قوله : ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ وقد اشتمل على القصر بطريق النفي والاستثناء ففيه غير وهي بمعنى " ألا " مع حرف النفي المتقدم " ما ", وفي قوله { أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ } فيه النهي (لا) وهي بمعنى النفي مع وجود " ألا " فطريق القصر في التركيبين واحد , قصر موصوف على صفة في الأول, وقصر صفة على موصوف في الثاني, مما جعل العبارتين نصا في الدعوة إلى التوحيد .

الثاني : طريقة معنوية, وتبدوا في أن الرسل كان لهم حيال أقوامهم دعوات متكررة وأقوال متعددة والحكاية في القصة القرآنية عمادها حكاية الحادثة بمضمونها الذي ترمي إليه, دون التزام بالتركيب النصي الوارد على لسان رسول من السابقين, فالحكاية تتنوع وتتفنن في التراكيب و العبارات حسب مقتضيات الأحوال, فما في سورة الأعراف جاء على الأصل, وما في سورة هود جاء

١ – ينظر : البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني ص ١٢٠ , ١٢١ .

٢ – الأعراف آية رقم ٥٩ , المؤمنون آية رقم ٢٣

٣ – هود آية رقم ٢٦

بصيغة القصر لمناسبة ما سبق على لسان خاتم المرسلين T ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ (١)

ونظير ذلك ما جاء في ختام الآية الأولى من القصة, ففي سورة الأعراف كان ختام الآية قول الرسول لقومه ﴿ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢) وفي سورة يونس جاء قول الرسول لقومه : ﴿ قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ (٣)

وفي سورة هود جاء قول الرسول لقومه { إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } (٤) .

وفي سورة المؤمنون جاء قوله { أَفَلَا تَتَّقُونَ } (٥) وفي سورة الشعراء جاء قوله : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (٦) ولم تذكر سورة العنكبوت قول شيء علي لسان الرسول فكأنها تحكي أمرا وقع دون كلام فقد جاء فيها قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٧)

---

١ – سورة هود آية رقم ٢

٢ – سورة الأعراف آية ٥٩

٣ – سورة يونس آية رقم ٧١

٤ – سورة هود آية ٢٥ .

٥ – سورة المؤمنون آية ٢٣ .

٦ – سورة الشعراء الآيات ١٠٦ – ١٠٩

٧ – سورة العنكبوت الآيتان ١٤ / ١٥

وسر ذلك أن للرسول خطابات متعددة ومختلفة، وقد سلك إلى هداية قومه كل سبيل، فالتعليم مرة، والتخويف مرة، وبيان أنه لا حاجة إلى أجر في نظير تعليمه لهم مرة إلى غير ذلك من الأساليب(١) .

ويقول الخطيب الاسكافي – رحمه الله – (للسائل أن يسأل عن اختلاف المحكيات كقوله بعد { ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم } { وإني أخاف عليكم عذاب يوم أليم} وفي المؤمنون { ما لكم من إله غيره أفلا تتقون } والقصة قصة واحدة .

الجواب : أن يقال للأنبياء مقامات مع أممهم يكون فيها الأعذار والإنذار، ويرجع فيها عودا على بدء الوعد والوعيد، ولا يكون دعاؤهم إلى الإيمان بالله ورفض عبادة ما سوى الله في موقف واحد بلفظ واحد لا يتغير عن حاله، بل الواعظ يتفنن في مقاله، والجاحد المنكر تختلف أجوبته في مواقفه، فإذا جاءت المحكيات على اختلافها لم يطالب وقد اختلف في الأصل باتفاقها، لأنه قال لهم مرة باللفظ الذي حكى، ومرة بلفظ آخر في معناه كما ذكر، وكذلك الجواب يرد من أقوام يكثر عدهم ويختلف كلامهم ومقصدهم، وصدق الخبر يتناول الشيء على ما كان عليه فلا وجه إذا للاعتراض بهذا ونحوه) (٢)

ويقول البقاعي – رحمه الله – في نظم الدرر في تفسير قوله تعالى { إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم } من سورة الأعراف يقول ولعله قال هذا عذاب يوم عظيم وفي هود (أليم) وقال في المؤمنون " أفلا تتقون " لأن ترتيب السورة الثلاث وإن كان الصحيح أنه باجتهاد الصحابة رضى الله عنهم (٣)

---

١ – ينظر : ملامح بلاغية في سورة المؤمنون ص ٩١ بتصرف

٢ – ينظر : درة التنزيل للاسكافي ص ١٥١

٣ – هذا من وجه نظر البقاعي رحمه الله ، وإن كان الصواب خلاف ما ذكر

فلعله جاء على ترتيبها في النزول ، لأنها مكيات .

وعلى ترتيب مقابل نوح عليه السلام لهم، فالآن لهم أولا المقال من حيث إنه أوهم أن العظيم الموصوف به اليوم لا بسبب العذاب بل لأمر آخر .

فيصير العذاب مطلقا يتناول أي عذاب كان ولو قل، فلما تمادى تكذيبهم بين لهم أن عظمه إنما هو من جهة إيلام العذاب الواقع فيه، فلما لجو في عتوهم قال لهم قول القادر إذا هدد عند مخالفة غيره له، ألا تفعل ما أقول لك ؟ أي متى خالفت بعد هذا عاجلتك بالعقاب وأنت تعرف قدرتي)(١)

ثالثا : جاء في سورتي هود و المؤمنون قوله تعالى : ﴿ **فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ** ﴾ (٢)

فقد وصف الملأ بالكفر في السورتين.

وجاء في سورة الأعراف قوله : ﴿ **قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ** ﴾ (٣) من غير وصف بالكفر.

والسر في ذلك : يرجع إلى أنه لم يذكر من سفاهاتهم في سورة الأعراف إلا قولهم : ﴿ **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ** ﴾ (٤) و الضلال الذهاب عن طريق الصواب مطلقا، فهي كلمة واسعة المعنى منتشرة الواقع لا تكون نصا في الكفر، هذا بينما ذكرت عنهم سورتي هود والمؤمنون ما ينص على وصفهم بالكفر إذ جاء على ألسنة القوم قولهم : ﴿ **مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ**

---

١ - ينظر : نظم الدرر ٣ / ٤٧ , ٤٨
٢ - هود آية رقم ٢٧ , المؤمنون آية رقم ٢٤
٣ - سورة الأعراف آية رقم ٦٠
٤ - سورة الأعراف آية رقم ٦٠

شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾ (١) فقد نفوا عنه الرسالة بوصفه بصفات ظنوها تنفي الرسالة (البشرية والمثلية) وبصفات ليست فيه بشهادتهم (حب الظهور، والتعالي، والجنون) والدعوى أن انتفاء الرسالة في السابقين من الناس إلى من سبقتهم من الناس يعني أنه لا رسالة، وتواصوا بالصبر عليه حتى يظهر الله صحة قولهم فيه أو حتى يموت، ما كل ذلك إلا تنوع في الكفر، دعا إلى مسارعة الآية إلى وصفهم بذلك الكفر من أول الأمر، وليس هذا شأن سورة الأعراف التي ذكرت عن القوم وقوفهم عند وصف الرسول بالضلال، ودفاع الرسول عن ذلك الوصف ببيان أنه رسول رب العالمين جاء يبلغ الناس رسالة الله .

وإن كانت سورة الأعراف قد ذكرت دفاع الرسول عن المثلية في قوله تعالى : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٢) مما يوحي بأن القوم يعترضون على المثلية، لكن ذلك الاعتراض، لم يذكر صراحة مما جعل الدفاع عنه مقصورا على الأمر بالتقوى رجاء نزول الرحمة بالقوم، لهذا لم تقف سورة الأعراف على الوصف بالكفر كالذي كان في سورة المؤمنون التي كان لها من المبررات ما بينا .

أما سورة هود فقد جاء فيها على ألسنة الملأ الكافرين قولهم : ﴿ مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (٣)

---

١ – سورة المؤمنون الآيتان ٢٤ – ٢٥

٢ – آية رقم ٦٣

٣ – هود آية رقم ٢٧ .

فقد نطق القوم بالبشرية والمثلية على ما جاء في سورة المؤمنون، وزادوا اعتراضا بأن المتبعين من ضعاف القوم لا من أشرافهم، وما اجتمع الضعفاء على حق في نظر القوم، بل إن اجتماع الضعفاء لا يكون إلا على باطل فدعواهم كاذبة، لذا كان دفاع الرسول عن هذه التهم متنوعا، فمرة يقول : لا قدرة لي على هداية قوم أعمى الله بصائرهم عن رؤية الحق الذي بعث الله به رسله، وقد أمرهم بعد الإكراه على إتباع منهجهم .

وثانية يقول : ما حيلتي وقد اتبعني الضعفاء وهل يليق بي منعهم من إتباع الحق لكونهم ضعفاء، وهل سألتكم أجرا على دعوتي لتتبعوها .

وثالثة يقول : لا علم لي بالغيب ولا أنا أملك خزائن الله ولا أنا بالذي يفرق بين المدعوين ولا أنا بالمنكر على أحد إتباعه منهج الله، فلما كان الاعتراض متعدد الجوانب،وكانت الردود متنوعة الأهداف كان لا محالة أن عاجله الآيات بوصف القوم بالكفر كالذي سلكته سورة المؤمنون وما يخالف منهج سورة الأعراف .

ويشبه منهج الاختصار في سورة الأعراف ما جاء في سورة الشعراء من مثل قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (١)

اعتراض بشيء واحد، وجواب بثلاثة أشياء :

١- ليس مهمة الرسول أن ينظر في ماض القوم، بل المهم أنهم آمنوا به الآن .

---

١ - الشعراء الآيات ١١١ - ١١٥

٢- أن الله وحده سيحاسب الناس وليس من شأن الرسول أن يمنع أحدا جاء يهتدي إلى وحي الله .

٣- مهمة الرسول هي البلاغ دون شيء آخر .

فقد كان الاعتراض مختصرا كالجواب على حد ما جاء في سورة الأعراف سالفة الذكر [١]

رابعا : في سورتي هود و المؤمنون بدأ رد الملأ مصدرا بحرف الفاء في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ ﴾ [٢] في السورتين, بينما كان الرد في سورة الأعراف عاريًا عن هذا الحرف في قوله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلأُ ﴾ [٣]

والسر في ذلك :

أن حرف الفاء حذف من الأعراف لأن المذكور فيها عن الملأ في ردهم قول مختصر فكان الحذف بالمختصر أنسب, على حين ذكر الحرف في هود والمؤمنون لأن المذكور عن الملأ فيه طول وإطناب فذكر الحرف به أنسب .

وقريب من ذلك ما يقال من أن المذكور عن الملأ في الأعراف سفاهة من غير شبهة يعتمد عليها المجيب في ردة مما يجعل الجواب بهذا لا علاقة له بالسؤال .

أما الرد في سورتي هود والمؤمنون ففيه شبهة اعتمد عليها المجيبُ في ردة, كحديث البشرية والمثلية واتهام الرسول ومطالبته بما ليس في طاقة البشر

---

١ - ينظر : ملامح بلاغية في سورة المؤمنون ص ٩٣ .

٢ - هود آية رقم ٢٧, المؤمنون آية رقم ٢٤

٣ - الأعراف آية ٦٠ .

أن يفعلوه مما يجعل الجواب ذا صلة بالسؤال، لذا كانت الفاء في الثاني دون الأول .

قال الخطيب الاسكافي – رحمه الله – (للسائل أن يسأل فيقول لأي معنى خلت في سورة الأعراف من الفاء،وقد جاء مثلها في السورتين بالفاء وهو فقال : الجواب أن يقال : إن الموضعين اللذين دخلتهما الفاء ما بعدها مما اقتضاه كلام النبي T مما رواه الكفار جوابا له، فكان بناء الجواب على الابتداء يوجب دخول الفاء، وليس كذلك الآية في سورة الأعراف لأنهم في جوابهم صاروا كالمبتدئين له بالخطاب غير سالكين طريق الجواب، لأنهم قالوا { إنا نراك في ضلال مبين } قال يا قوم ليس بي ضلالة فكان كلامهم له كالكلام الذي يبتدئ به الإنسان صاحبه، فلذلك جاء بغير فاء مخالفا ما الكلام بعده مبني بناء الجواب ؟ ومما أخرج من الأجوبة مخرج الابتداء بالكلام وإن كان في ضمنه الجواب مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (١) فلم يأت بالفاء في اللفظين اللذين كان ما بعد كل واحد منهما كالجواب لما قبله، ومما يؤكد صحة هذا القول قوله تعالى فيما كان من جواب عاد لهود ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢) ولم يقل فقال الملأ، لأن ما بعد قال هنا مسلوك به طريق الابتداء بالخطاب إذ رمى بالسفاهة كما رمى نوح بالضلالة، فلم

---

١ – سورة العنكبوت الآيتان ٣١ – ٣٢

٢ – سورة الأعراف الآيتان رقم ٦٥ – ٦٦

يدخل على واحد منهما الفاء التي تجعل الثاني متعلقا بالأول تعلق الجواب بالابتداء) (١)

وقال صاحب المنار – رحمه الله – في تفسيره للآية الكريمة من سورة هود ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ ﴾ أي فبادر الملأ أي الأشراف والزعماء الذين كفروا من قومه إلى الجواب ليكون الدهماء تبعا لهم كعادتهم، واقتران جوابهم هذا بالفاء لأنه هو الأصل في الرد السريع ومثله في سورة المؤمنون، وتقدم في سورة الأعراف مفصولا وهو" قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين " لأنه هو الأصل في باب المراجعة يقال قال ويسمى الاستئناف البياني .

والفرق بينهما في الموضعين من هذه القصة أن الموصول بالفاء أريد به المبادرة إلى الرد على نوح بما يبطل دعوته بزعمهم، والمفصول ليس إلا طعنا وتخطئه وهو من جملة ما رموه به لا يعلم متى وقع منهم وليس جوابا متصلا بالدعوة، فيا لله العجب من هذه الدقة في بلاغة القرآن) (٢)

خامسا : جاء في سورة هود قول الملأ لنوح ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ (٣)

وجاء في سورة المؤمنون قول الملأ بعضهم لبعض ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ (٤)

---

١ – ينظر : درة التنزيل ١٥١ , ١٥٢

٢ – ينظر : المنار ١٢ / ٥٢ .

٣ – هود آية رقم ٢٧

٤ – سورة المؤمنون آية رقم ٢٤

فكانت المشابهة من المخاطبين كما في سورة المؤمنون، وأخرى للمتكلمين كما في سورة هود .

والسر في ذلك :

أنه تنويع وتفنن مردة إلى المعاني الأصلية مع التصرف في حكايتها لملاحظات بلاغية تعود إلى مقتضيات الأحوال و السياقات يمكن أن يكون أحد هذه الملاحظات : أن الملأ رأوا أن الرسول يريد التميز وهذا من شأنه أن يكون على عامة الناس، أما الملأ فهم أفضل من أن يتميز عليهم أحد اللهم إلا إذا كان الملائكة كما يرى هذا النوع من الناس .

لكن الملأ في سورة هود كانوا يحتجون على الرسول بإتباع الضعفاء لرسالته فهم يرون أن الرسول أفضل ما يكون من أمره أن يكون واحداً من السادة غير أنه خالف هذه الأفضلية بإتباع الضعفاء له، فإذا رأوا فيه التميز كان ذلك على الضعفاء، وإذا نظروا إلى ما يجب أن يكون عليه الشخص كان مثل الأشراف .

ويمكن أن تكون مقالات مختلفة وقتا وفعلا،في حضرة الرسول وفي غيبته، المهم أن هذه الردود قد وقعت ويحكي القرآن مضمونها دون لفظها .

ولما كانت سورة المؤمنون تعتمد على بيان فضل أصل الفضل والشهادة لأهل الإيمان بالفلاح، كانت القصص فيها تحكي ما قال الناس بعضهم لبعض واتهامهم للرسول فيما بينهم دون مجابهة للرسل بشيء، يشهد لهذا قولهم في حق نوح ﴿ إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾ [1] وفي حق هود ﴿ إِنْ

---

١ - المؤمنون آية ٢٥ .

هوَ إلا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) فالحديث عن الرسل في غيبة منهم يصور رأى المرسل إليهم دون مشافهة بينهم و بين الرسول.

أما في سورة هود فمبني القصص على تسلية خاتم الرسل T برواية ما وقع لإخوانه أصحاب الرسالات السابقة لذلك قصت الآيات مجابهات وقعت بين الرسل وأقوامهم .

يشهد لذلك قولهم لنوح ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ (٢) إلى آخر ما حكته القصة من قوم يستعجلون العذاب ويسخرون من ذلك الذي يصنع الفلك في الصحراء، ورسولا يخوف من عذاب الله ويقول لقومه ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ (٣) وقولهم لهود ﴿ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ (٤) وقولهم لصالح ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـذَا ﴾ (٥) وقولهم لشعيب ﴿ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (٦) (٧)

١ - المؤمنون آية ٣٨ .
٢ - هود آية ٢٧
٣ - هود آية رقم ٣٨ , ٣٩
٤ - هود آية رقم ٥٣
٥ - هود آيةرقم ٦٢ .
٦ هود آية رقم ٨٧
٧ - ينظر : ملامح بلاغيه في سورة المؤمنون ص ٩٦

سادسا : جاء في سورة الأعراف قول الملأ لنوح عليه السلام ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١)

وجاء في سورة هود قولهم له ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ (٢)

وجاء في سورة المؤمنون قولهم له ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (٣)

فقد وصف القوم نبيهم بالضلال في سورة الأعراف بينما وصفوه بالبشرية في سورتي هود والمؤمنون .

فلماذا اختصت سورة الأعراف بما اختصت به، واختصت سورتي هود والمؤمنون بما جاء فيها؟

والسر في ذلك :

يعود إلى التنويع والتفنن مع مناسبة كل لفظ أو تركيب للموضوع الذي ذكر فيه .

فسورة الأعراف جاء فيها وصف القوم نبيهم بالضلال لأن السورة الكريمة ذكرت في آياتها السابقة ، على قصة نوح قوله تعالى : ﴿ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٤)

---

١ – سورة الأعراف آية رقم ٦٠

٢ – سورة هود آية رقم ٢٧

٣ – سورة المؤمنون آية رقم ٢٤

٤ – آية رقم ٣٠ .

وقوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ (٢) .

كان الأول حكاية عن بني آدم كلهم , وكان الثاني بين أهل الكفر يموتون عليه ثم يسألون عن الشركاء , وكان الثالث في تصوير أهوال القيامة .

فاشتمال الآيات الثلاث على حديث الضلال والضلالة رشح أن يكون حديث نوح مع قومه حول هذا الضلال , هذا وقد اشتملت قصة هود التالية على السفاهة وهي مرادفة للضلال .

أما سورة هود فقد سبق القصة اعتراض كفار مكة على خاتم المرسلين بقولهم ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ (٣)

فاعتراضهم بعدم مصاحبة الملك له يشهد على صحة دعواه يعنى أنهم لا يرضون رسالة البشر على ما جاء في سورة الإسراء من مطالبة أهل الكفر رسول الله T بأمور تصحح له ما يدعيه من كونه مرسلا من عند الله جاء منها قولهم : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴾ (٤) ورد الرسول

---

١ - آية رقم ٣٧.
٢ - آية رقم ٤٣ .
٣ - هود آية رقم ١٢ .
٤ - سورة الإسراء الآيتان رقم ٩٢ - ٩٣ .

على ذلك بأمر الله تعالى : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ (١) فاحتجاج القوم في سورة هود يتبع ما هنا كما يبدو والله أعلم .

أما سورة المؤمنون فإن حديث البشرية فيها لا يكاد يخفي علي ذي عينين إذ إن الآيات السابقة تقرر استواء الناس في أصل الخليقة أعني في البشرية , ثم تكرر حديث البشرية في قصة هود إذ جاء فيها قول الحق تعالي : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ (٢) .

وفي قصة موسي وهارون جاء قوله المولي تبارك وتعالي علي لسان فرعن وملاه ﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ (٣) . فحديث البشرية من أصل الخلق إلي أبرز القصص في السورة واضح .(٤) فناسب كل وصف موضعه .

سابعا : جاء في سورة الأعراف قوله تعالي : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ ﴾ (٥)

وجاء في سورة يونس قوله تعالي : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾(٦) .

---

١ – الإسراء آية رقم ٩٤

٢ – سورة المؤمنون الآيتان رقم ٣٣ , ٣٤

٣ – سورة المؤمنون آية رقم ٤٧

٤ – ينظر : ملامح بلاغية ص ٩٦ .

٥ – الأعرافيه آية رقم ٦٤

والمتأمل فيهما يجد أن آية الأعراف اختصت بقوله تعالى ﴿ أَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ ، وسورة يونس اختصت بقوله : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ ﴾ وزاد فيها ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾

والسر في ذلك :- يعود إلي التنويع والتفنن في طرق النظم مع مناسبة كل لفظ أو تركيب للموضوع الذي ذكر فيه .

(لأن أنجينا ونجينا للتعدي . لكن التشديد يدل علي الكثرة والمبالغة فكان في يونس ﴿ وَمَن مَّعَهُ ﴾ ولفظ ﴿ مَن ﴾ يقع علي كثرة مما يقع عليه (الذين) لأن من يصلح للواحد والتثنية والجمع , والمذكر والمؤنث بخلاف الذين , فانه لجمع المذكر فحسب فكان التشديد مع من أليق) .(٢)

وللخطيب الإسكافي وجهة نظر أخري فيقول رحمه الله (للسائل أن يسأل فيقول " لم اختصت الآية الأولي بقوله : ﴿ أَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ والثانية بقوله : ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ وزاد فيها ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾ ؟

الجواب أن يقال : - السورتان مكيتان جميعا والآية في سورة الأعراف وقوله " أنجيناه" أصل في هذا الباب , لآن أفعلت في باب النقل أصل لفعلت, وهو أكثر, تقول نجا وأنجيته, كما تقول ذهب وأذهبته, ودخل وأدخلته, وخرج وأخرجته, فأما فعلته فمن القلة بحيث يمكن عده , نحو وأفزعته, وخاف وخوفته, وقد يجاء معه بالهمزة فيقال أفزعته, وأخفته, ولا يجاء مع تشديد العين بالهمزة, لا تقول ذهبته, ولا دخلته, في أذهبته وأدخلته, فالآية الأولي جاءت على الأصل الأكثر, ولهذا أكثر ما جاء في القرآن جاء على أنجينا كقوله : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ

---

١ - سورة يونس آية رقم ٧٣ .

٢ - ينظر : البرهان للكرماني ١٢٢

مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ (١) وكقوله : ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢) وقوله : ﴿ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ (٣)

وليست الجيم في نجيناه للكثرة، وإنما هي العاقبة للهمزة بدلالة قوله في ذي النون ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ (٤)

ولا كثرة هناك .

وأما قوله { وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ } فهو الأصل – ومن – تجئ بمعناها، وتكونان مشتركتين في معان – والذين – خالصة للخبر مخصوصة بالصلة فاستعمل الأصل في اللفظتين أنجينا والذين، ولما كرر هذا الذكر كان العدول إلى اللفظين الآخرين اللذين هما بمعناهما وهما نجينا ومن أشبه بطريقة الفصحاء وعادة البلغاء .

فأما قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾ في الآية الثانية فإنه زيادة في الخبر عن الخوالف الذين نجوا من الغرق فصاروا خلفاء للهالكين، وقيل كانوا ثمانين نفساً وهلك سائر الأرض. فإن قال فالإغراق قبل أن جعلوا خلائف فكيف قدم عليه ؟

قيل : يجوز أن يكون معنى وجعلناهم خلائف إنما قدم لأنه من صفة أنجيناهم، فلما أخبر عنهم بذلك ضم إليه الخبر الثاني .

---

١ – سورة الأعراف آية رقم ٧٢ .

٢ – سورة الشعراء آية رقم ٦٥

٣ – سورة العنكبوت آية رقم ٢٤

٤ – سورة الأنبياء آية رقم ٨٨

ويجوز أن يكون معنى وجعلناهم خلائف أي حكمنا لهم بذلك، ثم كان الإغراق بعده على أن الواو لا ترتيب فيها ولا يمتنع أن يكون المذكور بعدها مقدما على ما قبلها) (١)

ثامناً جاء في سورة هود قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا ﴾ (٢)

وفي سورة المؤمنون قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا ﴾ (٣)

والمتأمل فيهما يجد ما يلي :

أولا : أن الأمر من الله لنوح بالركوب في السفينة ومن معه جاء في سورة هود تنجيزيا لا تعليق فيه، فعند مجئ الأمر وفوران التنور قال الله له ﴿ احْمِلْ فِيهَا ﴾ .

بينما كان في سورة المؤمنون هذا الأمر معلقا، والمعنى عليه، حينما يأتي أمرنا ويفور التنور فعليك أن تسلك فيها .

والسر في ذلك :

أن الأمر من الله لنوح بالركوب والذين معه في السفينة قد تكرر أمره به مرة أولى عند أمره بصنع السفينة فكان أمرا تعليقيا وهو الوارد في سورة المؤمنون، ويلاحظ أن كل من السورتين اشتملت على أمر مكرر، فالمعقول أن

---

١ - ينظر : درة التنزيل ١٥٤ , ١٥٥ .
٢ - هود آية رقم ٤٠ .
٣ - المؤمنون آية رقم ٢٧ .

الله إذا أمر بصنع سفينة لابد أن يكون لذلك الأمر غاية، فلابد من أن يفعل الرسول بالسفينة شيئا كما صرحت ذلك سورة هود في قوله : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ (١)

ثم حكت الآيات أن الرسول صنع وسخر منه قومه، وخوفهم حتى كان اليوم الذي فار فيه التنور فأمر الله بالحمل، كذلك كانت سورة المؤمنون إذا أمرت بالصنع وعلم الرسول أن ورائه شيئا يكون في الغد علمته إياه الآية { فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا } أي وإن علمت غاية صنع السفينة إلا أن وقته ليس الآن وإنما وقته حين يفور التنور وتقول لك ماذا عليك أن تفعل فكل من السورتين اشتملت على أمرين كما سبق .

وبدراسة الآيات في الموضعين يتبين أن الحكاية مرادة في سورة المؤمنون والمحكى مرادٌ في سورة هود .

قال الألوسي – رحمة الله – في تفسير للآية الكريمة في سورة المؤمنون (والآية صريحة في أن الأمر بالإدخال كان قبل صنعه الفلك , وفي سورة هود " حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين " فالوجه أن يحمل علىٰ أنه حكاية لأمر آخر تجيزي ورد عند فوران التنور الذي نيط به الأمر التعليقي اعتناء بشأن المأمور به , أو علي أن ذلك هو الأمر السابق بعينه لكن لما كان الأمر التعليقي قبل تحقق المعلق به في حق إيجاب المأمور به [illegible] جعل كأنه إنما حدث عند تحققه فحكي علي صورة التنجيز) (٢) .

---

١ – سورة هود آية رقم ٣٧ .

٢ – [illegible] ١٠ / ٤٠ , ٤١ .

ثانيا : مجي حتى في سورة هود مكان الفاء في سورة المؤمنون . ففي سورة هود قوله : ﴿ حتى إذا جاء أمرنا ﴾ وفي سورة المؤمنون ﴿ فإذا جاء أمرنا ﴾ .

والسر في ذلك :

أنه القصة في سورة هود أطول من القصة في سورة المؤمنون, فاقترن بكل من المكانين ما يناسبه .

ففي سورة هود مناقشة الرسول لقومه, واعتراض القوم بالبشرية والمثلية, واستعجال العذاب, وبيان أن المؤمنين لن يزيدوا, وسخرية القوم من الرسول وهو يصنع السفينة, حتى يكون يوم الهلاك .

وفي المؤمنون : لم يكن إلا حديث البشرية المثلية, وانتفاء الرسالة في السابقين, مما هو الطول دون الأول , فكانت الفاء أنسب في موضع, وكانت (حتى) مناسبة في موضع آخر .

وعلى هذا جاء قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ (١)

الآيات نجاة, وحمد, وبركة, وخير, ولا شيء بعد هذا لأن المقام مقام إيجاز, بمقدار إبراز النعمة التي كان الغرض الأساسي في هذا الجزء من السورة إبرازها وبيانها والتمدح بها أكثر من مرة, أعني نعمة الفلاح للمؤمنين, ثم نعمة خلق الإنسان مع ما حفه الله به من اللطف, ثم نعمة الخلق للكائنات علويها

١ – سورة المؤمنون الآيتان ٢٨ – ٢٩

وسفليها، ثم نعمة الهداية، والنبوات، ونجاة المؤمنين من كيد الكافرين، ألا ترى إلى أن نوحا قال لربه { قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ } [١] فكانت نعمة الاستجابة المشير إلى سرعتها، توارد حرف الفاء بعضه أثر بعض إلى آخر القصة { فأوحينا إليه، فإذا جاء أمرنا، فاسلك فيها، فإذا استويت } الآية [٢]

ثالثا : التعبير بالحمل في سورة هود في قوله تعالى { قلنا احمل } وبالسلك في سورة المؤمنون ففي قوله تعالى { فاسلك فيها } والسر في ذلك :

أن " إحمل " أكثر انتشارا في الاستعمال فكانت في القصة الطويلة، أما السلك فهو قليل لذا كان في القصة القصيرة .

قال الخطيب الاسكافي رحمه الله (للسائل أن يسأل فيقول : لم اختلف في الآيتين قوله { قلنا احمل فيها } وقوله { فاسلك فيها } ،وهل كان يصلح كل واحد منهما مكان الآخر، أو هناك معنى يخصص كلا بمكانه ؟

الجواب : أن يقال قوله { قلنا احمل } أخبار عما كان من الله تعالى إلى نوح عليه السلام من الأمر بحمل ما يحمله في السفينة، ومن يحمله من المؤمنين، وتقدم إليه بإعدادهم للركوب معه، ومنع من خطر عليه استصحابه، ثم بعد ذلك أمره بقوله اركبوا فيها. فالأول أمر بتهيئة ما يستبقى من الحيوان وما يستبقى من المكلفين، والثاني أمر بركوب السفينة، والثالث أمر بالهبوط منها بقوله { قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ } [٣]

---

١ - سورة المؤمنون آية رقم ٢٦

٢ - ينظر : ملامح بلاغية ص ٩٩ .

٣ - هود آية ٤٨

فالذي جاء في سورة هود جاء على مقتضى أوامر الله المفصلة إعداد من يركب معه ومن الركوب ومن النزول .

وأما قوله في سورة المؤمنون { فاسلك فيها } فإنه مجمل على ما فصل في الآية الأولى إذ كان الشرح والبيان مقصورين عليها, وكانت الثانية مشتملة على بعض ما اشتملت عليه الأولى وهو قوله " اسلك " ما يتضمن احمل واركب واعبر, ومن ذلك سمى الطريق مسلكا, ولسلكه ينابيع في الأرض أي أجراه, وسلك الطريق أي نفذ فيه, فكان موضع الاختصار أولى بالمجمل من الكلام وموضع البيان أولى بالبسط, فقصة نوح في سورة هود قد شغلت بها خمس وعشرون آية, وهي في سورة المؤمنون واقعة في ثمان آيات, فاقتران بكل من المكانيين ما اقتضاه القصد من زيادة بيان أو اختصار كلام) [1]

تاسعا : جاء في سورة هود قوله تعالى { قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ } [2]

وفي سورة المؤمنون جاء قوله تعالى : { فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ } [3]

والمتأمل فيهما يجد ما يلي :

أولا : زيادة لفظ (ومن آمن) في سورة هود دون سورة المؤمنون والسر في ذلك أمران :

---

١ - ينظر : درة التنزيل للاسكافي ص ٣٢٥ , ٣١٦

٢ - هود آية رقم ٤٠ .

٣ - المؤمنون آية رقم ٢٧ .

الأول : أن زيادة { ومن آمن } في سورة هود مناسبة لمقام الإطناب في القصة .

فآية سورة المؤمنون من تأمل فيها يجد أن المحمول في السفينة صنفان (الزوجان, الأهل) بينما آية هود المتأمل فيها يجد أن المحمول في السفينة ثلاثة أصناف, بزيادة قوله (ومن آمن) فسواء كان الأهل أهل النسب, أو أهل الديانة وعطف المؤمنين لغاية الوصف, فإن زيادة ذكر (ومن آمن) يعود خاصة لمقام الإطناب فيها .

الثاني: أن من آمن قد ذكروا في سورة هود أكثر من مرة, فمثلا ذكروا في قول قومه له { مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} (١)

ثم في حديثه عليه السلام عن الرحمة تنزل بأمر الله على من شاء الله, ومناقشة أهله له في العذاب متى ينزل بهم إلى غير ذلك من الأمور التي كانت نهايتها سخريتهم منه, وهو يصنع الفلك في مكان ظنوه بعيدا عن الماء, وتخويفه إياهم عذاب الله ينزل مخزيا, لذا كان ذكر الأهل في سورة التطويل أنسب إذ أن وصفهم بالإيمان في سورة تحدثوا فيها وسمعوا, أعون على تميز المؤمنين عن سواهم بمزيد اعتناء, لأن النفس تستشرف لمعرفة مئالهم بعد الجدال في شأنهم والطعن عليهم من الكافرين والدفاع عنهم من رسوله, وشفاء النفس من عناء ما استشرف الله بذكر ما تستشرف إليه, مازال ولن يزال من مقاصد البلغاء بل هو البلاغة النفيسه) (٢)

---

١ – آية رقم ٢٧

٢ – ينظر : ملامح بلاغية في سورة المؤمنون ١٠١

ثانيا : زيادة لفظ " منهم " في سورة المؤمنون دون سورة هود .

والسر في ذلك :

إما لأن عطف قوله { ومن آمن } في سورة هود على سابقه عطف مفردات مراعاة لعدم وصل الجملة الاستثنائية الواقعة بين المعطوف والمعطوف عليه .

أو لأن حذف هذا البيان تقليل في بيان كون المستثنى السابق عليهم القول من أهله أم لا .

وهذا أشبه بما حكى عن نوح في السورة نفسها من أن ابنه من أهله أم ليس منهم ؟ وهل هو من الذين سبق عليهم القول أم لا ؟ فهما هو ذا ابنه يغرق لكن أباه يسأل{رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ} (١)

ظانا أن النبوة وحدها تجعل الولد تابعا لأبيه, وبذا يكون هذا الكافر من أولاد نوح ومن أهله بنص القرآن لكن الحق تعالى بين أن المقياس هو العمل وليس النبوة فقط فيقول { يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } (٢) فليس الغارق من الأولاد تابعا لأبيه لاختلاف العقيدة والعمل) (٣)

عاشرا : جاء في سورة هود قول نوح لقومه { وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ } (٤)

---

١ – هود آية رقم ٤٥ .
٢ – هود آية رقم ٤٦ .
٣ – ينظر : ملامح بلاغية ص ١٠٢ .
٤ – سورة هود آية رقم ٢٩ .

وجاء في سورة يونس قوله لقومه { فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ} [١]

وجاء في سورة الشعراء قوله لقومه { وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ } [٢]

فقد وردت كلمة أجر بدل كلمة مال في سورتي يونس والشعراء .

والسر في ذلك :

يعود إلى التنويع والتفنن في طرق النظم مع مناسبة كل لفظ أو تركيب للموضوع الذي جاء فيه.

قال الكرماني – رحمه الله – (وسبب ذلك أنه في الموضع الذي وردت فيه كلمة (مال) وقعت بعدها كلمة خزائن ولفظ المال بالخزائن أليق فقد جاء على لسان نوح عليه السلام في سورة هود قوله { وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ } [٣] فناسب ذكر المال هاهنا بخلاف المواضع الأخرى) [٤]

الحادي عشر :

جاء في سورة نوح أنه عليه السلام دعا على قومه بالضلال فقال { ولا تزد الظالمين إلا ضلالا } بينما في أخر السورة ورد أنه دعا على قومه بالهلاك فقال { ولا تزد الظالمين إلا تبارا }

---

١ – يونس آية رقم ٧٢ .

٢ – الشعراء آية رقم ١٠٩ .

٣ – هود آية رقم ٣١ .

٤ – ينظر : البرهان للكرماني ١٤٤ .

والسر في ذلك ، يعود إلى التنويع والتفنن مع مناسبة كل لفظ أو تركيب للموضوع الذي ورد فيه.

قال الخطيب الاسكافي – رحمه الله – للسائل أن يسأل عن الأول واختصاصه بالاضلال، وعن الثاني واختصاصه بالإهلاك الذي هو التبار ؟

والجواب: أن الأول جاء بعد قوله تعالى : { **ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا** } أي لما قالوا { ولا تذرن ألهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا } فأمروا أتباعهم بالتمسك بعبادة هذه الأصنام، وأضلوهم عن طريق الرشاد، دعا عليهم نوح عليه السلام بأن يضلهم الثواب بعد استحقاق العقاب ليجاوب قوله { وقد أضلوا كثيرا } وأما الأخر فإن معناه زدهم هلاكا على هلاك، وعذابا فوق عذاب، بما وافوا عليه القيامة من كفر وضلال، ذلك عند دخول النار، فاقتضى كل من المكانين ما جاء فيه .

الثاني عشر :

جاء في سورة الأعراف [1] ويونس [2] وهود [3] و المؤمنون [4] والشعراء [5] أن وسيلة النجاة التي ركبها نوح ومن آمن معه تسمى الفلك .

وجاء في سورة العنكبوت [6] أنها تسمى بالسفينة .

---

١ – الأعراف آية رقم ٦٤ .
٢ – يونس آية رقم ٧٣ .
٣ – هود آية رقم ٣٧ – ٣٨
٤ – المؤمنون آية رقم ٢٧ .
٥ – الشعراء آية رقم ١١٩ .
٦ – العنكبوت آية رقم ١٥ .

وجاء في سورة الحاقة أنها تسمى بالجارية (١)

وجاء في سورة القمر (٢) أنها تسمى ذات ألواح ودسر .

والسر في ذلك : يرجع إلى التنويع والتفنن في طرق النظم مع مناسبة كل لفظ أو تركيب للموضوع الذي ذكر فيه .

فالأصل الغالب والكثير تسميتها بالفلك للدلالة على العظم في التفلك والتضخم, وبهذا العنوان وقع التعبير في ما كان من قبيل آيات الله الكونية, فالبحار والفلك التي تجرى فيها ماخره .

وقد يقع التعبير بالسفينة مراعاة لما فيها من معنى السفن وشقها المياه وجريها لأنها ليست عظيمة وإنما صغار السفن كما في سورة الكهف في قوله تعالى : { أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ } (٣)

وإما لمراعاة أن السفينة أصغر من أن تقاوم ما حولها من الماء كما في العنكبوت في قوله تعالى : { فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ } (٤)

والمعنى أن السفينة التي قطعت الماء وجرت فوقه كبيرة في ذاتها وإن كان الماء عظيما لا يظن منه نجاة, كذلك كان الحال في تسميتها بالجارية في قوله تعالى : { إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } (٥) أي التي تجرى فوقه

---

١ – الحاقة آية رقم ١١ .
٢ – القمر آية رقم ١٣ .
٣ – آية رقم ٧٩ .
٤ – العنكبوت آية رقم ١٥
٥ – الحاقة آية رقم ١١

فتنجيكم من طغيانه كأنما تجري هاربة من هذا الطغيان وهذا شأن الصغار يجرون خوفا من الكبار، وإن كان الصغار أكبر من غيرهم .

ولما ذات الألواح والدسر في قوله تعالى في سورة القمر { وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ } (١) بعد قوله { فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ } (٢) فالمذكور في العقاب اثنان، ماء نازل من السماء، وماء صاعد من الأرض، ملتقيان على أمر هو إغراق الأمة الكافرة وإهلاكها فكذلك كانت أداة الإنجاء الثنائية فهي ألواح ودسر، تجتمع على أمر مقدر هو نجاة الأمة المؤمنة) (٣) .

الثالث عشر :

في خواتيم قصة نوح في سورة الفرقان يقول تعالى { وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً } (٤) وفي سورة الشعراء يقول تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً } (٥) وفي سورة العنكبوت يقول تعالى { وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ } (٦) وفي سورة القمر قوله تعالى { وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } (٧)

---

١ آية رقم ١٣ .
٢ – الآيتان رقم ١١ – ١٢
٣ – ينظر : ملامح بلاغية ١٠٣ .
٤ – آية رقم٣٧
٥ – الشعراء آية رقم ١٢١ .
٦ – آية رقم ١٥ .
٧ – آية رقم ١٥

فلفظ آية ورد بالإفراد في خواتيم القصة في هذه السورة, أما في سورة المؤمنون فقد ورد بالجمع في لفظ آيات قال تعالى { إن في ذلك لآيات } (١)

والسر في ذلك :

يعود أنفا إلى التنويع والتفنن في طرق النظم مع مناسبة كل لفظ أو تركيب للموضوع الذي ذكر فيه .

فالقصة في سورة المؤمنون ذكرت بعد آيات في خلق الإنسان وما يحيط به من عالم الأرض والسماء, والزرع والشجر والبهيمة, وبعد القصة تذكر قصتان ويشار إلى عدد آخر من القصص, ثم تذكر الآيات دلائل القدرة المتنوعة, وفي كل ذلك آيات, فتكون قصة نوح في المؤمنون بالجمع أولا .

أما لفظ الآية الوارد مفردا فهو في غالب أمره يذكر لبيان أن في كل قصة آية فسورة الشعراء مثل تذكر قصصا فيه بعض التفصيل وتقول بعد كل قصة, " إن في ذلك لآية " فتكون قصة نوح آية يعنى أن قصة موسى, وهود, وصالح, وشعيب, ولوط, وقبل ذلك وبعده الحديث إلى أهل مكة, في كل واحدة من ذلك آية (٢) .

---

١ – آية رقم ٢٧ .

٢ – ينظر : ملامح بلاغيه ١٠٤ .

الخاتمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

وبعد

فهذا ما تيسر لي بفضل الله وسعة رحمته وإحسانه من مباحث في أسرار التنزيل في قصة نوح عليه السلام فإن كان ما توصلت إليه صوابا فهو توفيق من الله تعالى، فله الحمد والشكر ، وإن تكن الأخرى فما إليها قصدنا ولا فيها رغبنا، ومن اجتهد وأصاب فله أجران ، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد .

ومن خلال سطور هذا البحث نخرج بالنتائج التالية :

١- أن قصة نوح عليه السلام وردت في سور شتى بين الطويل من القصص أو القصير، المعتمد على الإشارة السريعة، أو الواقفة عند بعض الأحداث التي تتفق مع المنهج الأساسي للسورة .

٢- أن قصة نوح عليه السلام تكررت في القرآن بطرق مختلفة وأساليب متنوعة لتفيد غرضا معينا يتلاءم مع الإطار العام للسورة التي ذكرت فيها .

٣- أن كل سورة وردت فيها قصة نوح عليه السلام قد انفردت بذكر شيء جديد لم يذكر في غيرها من السور التي وردت فيها القصة .

٤- أن قصة نوح عليه السلام مع ذكرها في أكثر من سورة ليس فيها ذلك التكرار المطلق الذي يخيل لبعض من يقرأون القرآن بلا تدقيق وإمعان .

٥- أن ما كان من تكرار شيء في القرآن له صله بنبي الله نوح فإن ذلك لك يكن عبثا بل كان لتحقيق أغراض دينية وأسرار بيانية .

٦- أن قصة نوح عليه السلام انفردت بسورة كاملة من قصار السور كما انفردت قصة يوسف بسورة كاملة من طوال السور .

٧- أن كل الصور التي عرضها القرآن لقصة نوح عليه السلام جميعها صورة واحدة يكمل بعضها بعضها، في حين أن كل صورة منها تمثل القصة كلها وتبرز ملامحها .

٨- أن مجموع آيات هذه القصة بلغ ما يناهز مائه وعشرا من الآيات وأما اسمه فقد ذكر في القرآن في مواضع شتي بلغت ثلاثة وأربعين موضعا ،واحد وعشرين موضعا في السور التي ذكر فيها قصته والباقي اسما مجردا من غير ذكر القصة .

وأخيرا فاني أسأل الله أن يجعل عملي خالصا لوجهه ،وأن يجعله في ميزان حسناتي ،وأن يتجاوز بهذا العمل المتواضع عن زلاتي إنه سميع قريب وبالإجابة جدير .

وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه أجمعين ،والحمد لله رب العالمين .

دكتور

رمضان عبد العزيز عطا الله

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن

مراجع البحث

القرآن الكريم .

الأساس في التفسير للأستاذ / سعيد حوي طبعة دار السلام .

أساليب الإقناع في القرآن بن عيسى بالطاهر طبعة دار الضياء اليمن .

إلي القرآن الكريم الشيخ شلتوت طبعة دار الشروق .

البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني تحقيق عبد القادر الله طبعة دار الفضيله .

البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق مصطفي عبد القادر عطا الله طبعه دار الفكر .

التصوير الفني في القرآن للأستاذ سيد قطب طبعه دار الشروق .

تفسير القرآن العظيم لابن كثير طبعه المكتبة التوفيقية .

التفسير القرآني للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب طبعه دار الفكر العربي .

التفسير الكبير للرازي طبعه دار الفكر .

تفسير الطبري طبعه دار الحديث .

تفسير المراغي طبعه دار إحياء الكتب العلمية .

تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا طبعه الهيئة العامة للكتاب .

تفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي طبعه دار الفكر .

تفسير النيسابوري طبعه دار الحديث هامش تفسير الطبري .